عبد الفتاح عبد الخالق سمك

أهل بدر

موسوعة تاريخية ثقافية أدبية

الجزء الثالث

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الاولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

الإهـــــــــداء

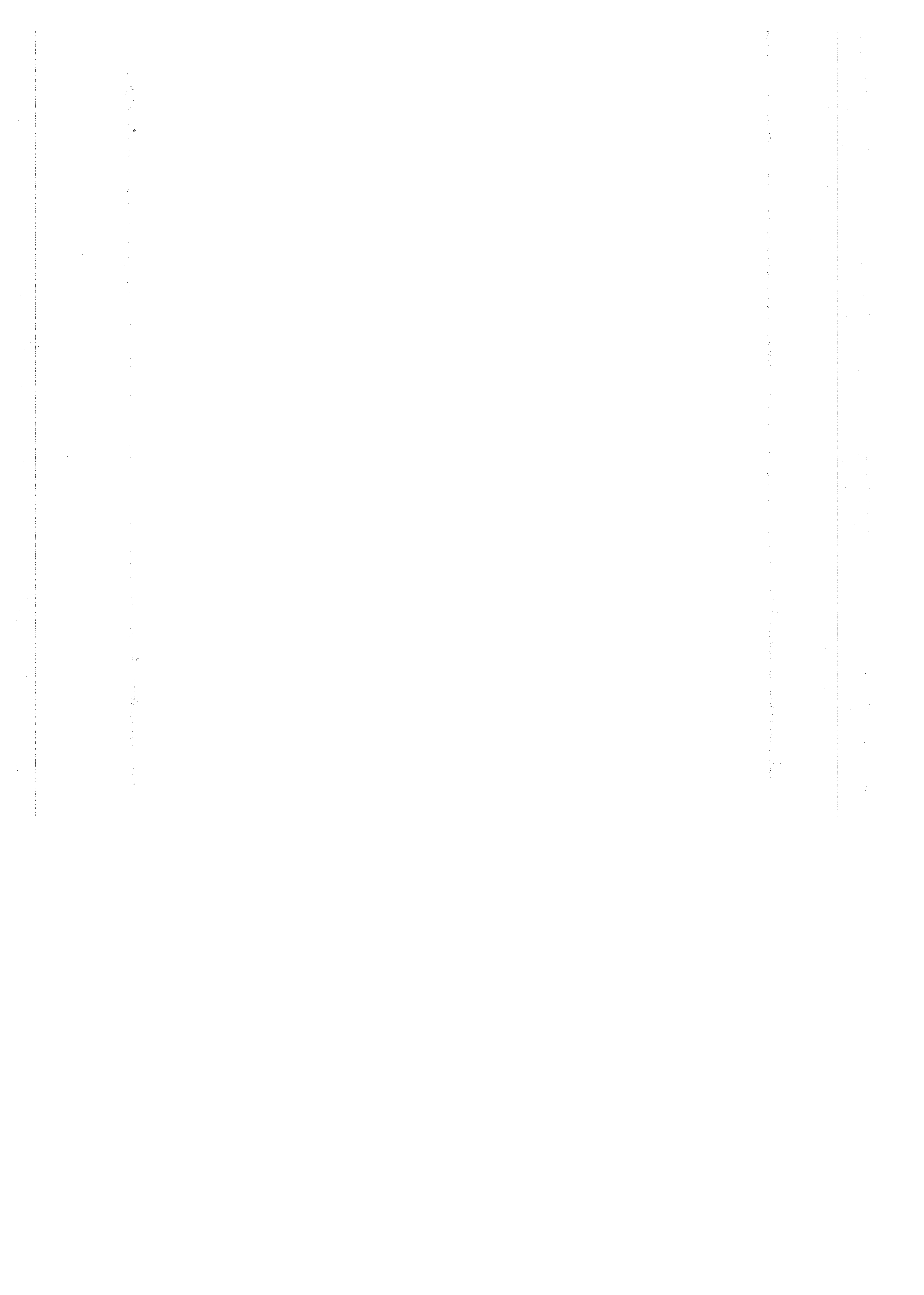
أيها الباحثون عن المثل العليا ..

يا من تنشدون الكمال البشري ..

دونكم **أهل بدر** ..

كأن الله قد اطّلع عليهم ، ثم قال لهم ..

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي أطلع على أهل بدر ، ووضع عنهم كل وزر ، وادخر لهم عظيم الأجر .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أول بدري وضع الله عنه وزره ، وشرح صدره ، ورفع ذكره .. وبعد ..

قلت في مقدمة الجزء الأول ما يلي :

استغرق الإعداد لهذه الموسوعة ثلاثة عشر عاما ، وتم تحرير هذا الجزء منها في عام كامل .

وأهل بدر جديرون ببذل العمر كله من أجلهم ، حيث كانوا هم حماة الدين، الذين قدموا أنفسهم يبذلونها للدفاع عنه على غير أهبة واستعداد ، فحقق الله لهم النصر ، وحفظ لهم أرواحهم ، وبشرهم بالمغفرة وإن فعلوا ما يشاءون .

على أن أهل بدر وإن كانوا في البشرى سواء ، فإنهم يتفاوتون في الشهرة ، حيث إن الله رزق بعضهم الشهرة ، فعرف اسمه القاصي والداني ، وأكثرهم قد تقرأ عشرات المراجع فلا تعرف عنه إلا اسمه ، فأخذت على نفسي أن أنقب _ قدر طاقتي _ عن غير المشهورين منهم أولا عسى الله أن يأجرني بذكرهم فيذكرني _ إن شاء الله _ عنده .

ولكنك ستجد في الكتاب مناقشة لقضايا معاصرة أثار الكلام عنها مواقف البدرين فلا يأخذك العجب إذا استغرق الكلام عن هذه القضايا بالقدر الذي يوضح فكرها ومرماها .

وإنك لواجد نتفا من التاريخ ، ومواقف لغير البدريين يقتضي المقام ذكرها، يخرج لك في النهاية _ بإذن الله _ كتابا مكتملا من المعرفة بمعناها الموسوعي تدعو

الحاجة إليه للمثقفين بمثل ما تدعو الحاجة إلى إبراز نماذج إنسانية ترسم مثلا عليا للشباب بعد أن كثرت تراجم أهل اللهو ، وتقلص في وسائل الإعلام ما يذكر بأمثلة الرجولة الكاملة ، وحتى المرأة الكاملة .

وإنك لواجد بعد ذلك عبارة لم أتكلف في الارتفاع بها ، و لم أتكلف كذلك في تيسيرها ، وتركتها على السجية حتى لا أنشغل بها عن فكرة أو حدث .

إنني من المحبين للغة العربية ، الحريصين عليها ، الواثقين في قدرتها على حمل أي مفهوم ، وأي عبارة ، وأي اتجاه ، وأي مصطلح ، وأنا من المؤمنين كذلك ببقائها وحفظها بحفظ الله الذي حفظ الذكر ، وهي وعاؤه ، ولا يحفظ القرآن إلا بحفظ لغته .

يبعد المسلمون عن اللغة أو يقتربون ، يستلذون الفصاحة أو يستعذبون الركاكة ، أو يجنحون إلى الجزالة ، لكنهم في كل حين مشغولون بلغتهم ، والعمل الذي يكتب له البقاء في لغتنا هو الذي كتب بها بلسان عربي مبين .

وأقول هنا إنني في هذه الموسوعة لا أكتب سيرة لمن أترجم له ، ولا أرسم له صورة ، وإنما قصدت إلى أن أكتب السيرة في إطار صورة .

إن سفر الإسلام عظيم وإن سلطان الإسلام قاهر بإذن الله ، وما فلان وفلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا فلان وفلان من خلفهم والعاملين للإسلام في كافة عصوره إلا أسطرا أو جملا أو مفردات في هذا السفر العظيم ، جاءتهم العزة من عزته ، وكان لهم الشموخ من شموخه ، حتى قال قائلهم ، وهو ينطق بلسانهم ولسان الحق و المنطق أنا بالله عزيز .

ولقد شهد التاريخ رجالا كالصديق في الورع والحزم وجيشان العاطفة وقوة القلب ، ولكنه لم يشهد رجلا كالصديق تفرد في هذه الصفات ، وذلك لأن صفات الصديق كانت تستمد حيويتها ومضاءها وبهاءها من حيوية الإسلام ومضائه وبهائه وأقل دليل على ذلك أنه لم يكن ورعا ولا حازما لكي يقال عنه إنه متصف بهذه الصفة أو تلك .

ويقال مثل ذلك في عظمة عمر ، وفروسية علي ، وفدائية عثمان ، وقيادة خالد .

تحتفظ ذاكرة التاريخ بخطط عسكرية ، وقيادات حربية أسهمت في تغيير خريطة العالم على قدر ثقلها وإحكام تخطيطها ، ولكن قيادة خالد بن الوليد تبقى متميزة ، وسيفه يظل متفردا ، و لم يكن ذلك لبلائه في الصراع مع الفرس والروم، ولا لمجرد فعاليته في إخماد حريق الردة ، وإنما لسيطرته على نفسه، و قدرته على قيادها ، ومعرفته اليقينية بأن الإسلام هو الذي صنعه وسواه ، حتى إذا عزل عن القيادة لم يظهر حرصه عليها ، وإذ عرف أنه لن يحرم من الجهاد فقد طابت نفسه وسلم الراية لأبي عبيدة ، وأسلم نفسه لقيادته ، فكان سيف الله على أعدائه وسيف الله على هوى النفس ووسوسة الشيطان .

وما يقال عن خالد يمكن أن يقال مثله عن عياض بن غنم ، وعتبة بن غزوان، وأبي سبرة بن أبي رهم ، وسالم وغيرهم .

ألم يكونوا بشرا ؟ ألم تكن لهم حظوظهم من الدنيا ؟

بلى كانوا بشرا وتلك ميزتهم لأنهم كانوا يدركون أن بشريتهم لن ترقى بهم إلى الكمال إلا إذا عاشوا في أحسن تقويم و لم يردوا أسفل سافلين ،و التقويم الأحسن للبشر أن يسير على منهج صانعه وأن يتوجه بتوجيهاته وأن يتحلى بآدابه .

التقويم الأحسن الذي يبعد الإنسان عن الخسر هو أن يدرك أن الإسلام دين طقوس و شعائر ونظام حياة ونسق من عقيدة يربطها بالله خالق الأكوان أوثق رباط فيه الخضوع و الخنوع له وفيه العزة و الشموخ في مواجهة الحياة ، وفيه الذلة والرحمة وخفض الجناح و الصبر و الغفران بين المسلمين ذوي الرحم الواحد بنسب الإسلام الذي جمعهم إخوة تسود بينهم المودة و الرحمة ، وفيه البراء و الفصام من الكفر وما يقرب إليه أعزاء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

ينكرون ذواهم ليظهر دينهم ويبذلون أنفسهم و أموالهم ابتغاء وجه رهم, هـم أشد حبا لله و أكثر ولاء للمسلمين و أخلص عملا للإسلام لا يتباهون بمكانـة، ولا يطمعون في منصب ،ولا يسعون إلى حظ من الدنيا غير نصرة لله والدين.

ومن أجل ذلك فنحن لا نترجم لهم و إنما نترجم للدين الـذي هـم لبناتـه وأسطره وجمله ومفرداته .

نكتب عن السياق العام للإسلام ثم نوضح دور كل واحد منـهم في هـذا السياق، مربوطا به رباط اللحمة بالسدى ،ورباط النفس بالروح، وربـاط القلـب بالوجدان ،ورباط العقل بالفكرة و الخاطرة .

وثم رابط آخر لا طاقة لنا على إغفاله، لأنه لا بديل لنا عنه ، وهـو يسـتتبع الأول ،وهو الربط بين ما عاشوا به ،وما نحن عليه ،فليست قراءة التاريخ للاستمتاع و التسلية و إنما لاستماع الدروس و الاستفادة من العبر و الداعية المسلم ــ وكـل مسلم داعية بعلمه أو بعمله -مأمور باستقراء التاريخ واستنطاق أحداثه بما يعتدل بـه الصف وتنتظم به المسيرة ويستقيم النهج . وإذا كان القرآن الكريم هو آيات الله التي تتلى وتستخلص منها القوانين و الشرائع فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو آيـة الله التي تمثلت آياته و بينت للناس ما يتلى عليهم من الذكر الحكيم وعـبر التـاريخ في آيات الله التي تمثل العمل بالمنهج وما يترتب عليه من صلاح و فلاح والبعـد عـن المنهج وما يترتب عليه من ضلال و خسران .

في هذا الإطار يفهم الأمر الإلهي بالسير في الأرض لتقصي أنباء السابقين مـن التزم بالمنهج ففاز وأفلح ومن انحرف عنه فحقت عليه كلمة العذاب ويفهم لـوم الله للمشركين بأنهم لم يسيروا فينظروا أو أنهم ساروا فلم يتفكروا ﴿وَ إِنَّكُمْ لَتَمُـرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِالَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [1]﴾.

[1] - الصافات / ١٣٧ ، ١٣٨

و القول بأن التاريخ يعيد نفسه قول صحيح لأنه يتفق مع سنن الله في خلقه فمتى وجدت شرائط السنة تحققت ،ومن السنن الربانية أن العلاقة بين الإيمان والكفر هي علاقة دفع وصراع و أن الكفار لن يكفوا عن المسلمين إلا إذا كانت الدائرة للمسلمين كف الخوف و التربص لا كف الصلح و السلام .

وقد حفلت الآيات القرآنية بالحديث عنهم فقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ،وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [1] ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ [2] ﴾ وقال ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [3] ﴾ وقال ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ الله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ الله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [4] ﴾ وقال ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ [5] ﴾، وقال ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ [6] ﴾ وقال ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ الله مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ [7] ﴾ وقال ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ،كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ،تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ

[1] - البقرة / ٧٤
[2] البقرة / ٨٨
[3] - البقرة / ١٠٠
[4] - البقرة / ١٠٥
[5] -البقرة/ ١٠٩
[6] - البقرة / ١٧١
[7] - البقرة/ ٢١١

كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ [1] ﴾ وقال ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [2] ﴾

إن من واجبات دعاة المسلمين – و المسلمون كلهم دعاة – قراءة التاريخ وعرضه واستخراج السنن الربانية منه ،و الإشارة إلى مواقعها في أحداثه، لعل أهل الإيمان يستيقظون من سباقم ،ويعرفون موقعهم على الأرض و في الكون الذي هو موقع القيادة و الإقدام و الأسوة، لأن القيادة إذا كانت للإسلام نعم في ظله غير المسلمين، وكم نعم غير المسلمين في ظل المسلمين ما كانت لهم القيادة ،وكم عانى المسلمون في ظل أعداء الإسلام إذا تمكنوا منهم فالمسلمون تملأ الرحمة قلوبهم ويرون في كل ذات كبد رطبة أجرا وغير المسلمين تملأ قلوبهم الأحقاد و الضغائن والقسوة فهي كالحجارة أو أشد قسوة .

إن الله عز وجل أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فأشربت قلوب أتباعه الرحمة ،فأن تكون الغلبة لهم ذلك في صالح سعادة البشرية و أمنها،

و على الداعية المسلم أن يلتمس الأدلة على ذلك من أقوال التاريخ و ذلك هو الربط بين الماضي و الحاضر و المستقبل وهو ما نفعله ونحن نتحدث عن أهل بدر رضي الله عنهم .

وقد فطن إلى ذلك قراء الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب، واحتفلوا به احتفالا نشكر الله عليه ، ففضلا عما شعرت به من الفرح أن ذلك الجهد وجد صدى يوازيه ، داخلني كبير الأمل بأن هذه الأمة مركوز فيها الخير إلى يوم القيامة ، وأن ما يبدو على سطح الأمة من سفاهة وفجاجة إنما هو الرغوة التي يطمئن تحتها اللبن الفصيح .

ولقد طالبني هؤلاء القراء بالتريث في سرد أحداث التاريخ بمثل هذه القراءة التي تستنطق وتحلل وتعلل ، فإن كتابة السيرة في إطار الصورة تكون أشد تأثيرا في

[1] – المائدة / ٧٨ – ٨٠

[2] – التوبة / ١

النفس ، وإفهاما للأحداث إذا أتيح لها بعض التفصيل ، وقد أخذت برأيهم وشكرت لهم ، ومن أجل ذلك فسوف تجد _ بإذن الله _ في هذا الجزء وما ييسر الله بعده من أجزاء قليلا من الأشخاص وكثيرا من الأحداث ، بحيث تعرف دقائق السيرة وأنت تتلمس ملامح الصورة التي نترجم لها .

وإنني بعد ذلك أقبل النصح ، وأطلبه ممن عندهم العلم لأن الغاية هي بلوغ درجة من الكمال ، حيث لا يمكن بلوغ الكمال كله ، فهو جهد بشري أهم ما يميزه النقصان، وأفضل ما يرجوه القبول من الله عز وجل ، وجبر النقص بالتجاوز .

اللهم علمنا ما جهلنا ، وانفعنا بما علمتنا

عبد الفتاح سمك

سلمة بن سلامة

ابن وقش الأنصاري ، من بني عبد الأشهل الذين كان النبي ﷺ كثير الثناء عليهم شديد الحب لهم ، لا يعدل بهم غيرهم كما تروى عنه أمنا الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما .

يروي سلمة بن سلامة قصة كان أحد شهودها ولكنها تحمل مضمونا يدمغ اليهود في صدقهم وأخلاقهم ، ويبرز ضغائنهم وأحقادهم.

إن الله أخبر عنهم في أوجز وأتم معنى حين قال ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ .[1]

وهذا التعبير الموجز يحمل أكثر من توكيد حتى ترسخ معانيه في نفوس المؤمنين ، فتنطبع فيها ، ثم تنطبع بها حياتهم فيما بعد .

فالله تعالى هو أصدق القائلين ، و مجرد إخباره للأمر يقتضي بل يحتم على المسلم أن يصدقه .

و أصدق القائلين أكد قوله بالقسم الذي تدل عليه اللام الموطئة ، والمضارع الذي يدل على الاستمرار و التجدد ، و بنون التوكيد الثقيلة وبتقدم اليهود على الذين أشركوا ، و باسم التفضيل (أشد) الذي يشير إلى درجة العداوة و أنها بلغت حدها الأعلى ، فلا توجد عداوة أشد منها يحملها بعض الناس لبعض ، ثم بتقديم اليهود على المشركين ليدل على أنهم و إن اشتركوا جميعا في مقدار العداوة للمسلمين ، إلا أن اليهود يتقدمون في ذلك ، و في هذا التقديم إشارة إلى أصالة العداوة عند اليهود من ناحية ، و إلى أن اليهود هم الذين أشربوا نفوس المشركين المريضة تلك العداوة المنكرة .

[1] - المائدة / ٨٢ .

يقول سلمة : كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ،فخرج علينا يومـــا من بيته قبل مبعث النبي صلى الله عليه و سلم بيسير ، فوقف على مجلس بني عبـــد الأشهل ، و أنا يومئذ أحدث من فيه سناً ، علَى بردة مضطجعا فيها بفناء أهلـــي ، فذكر البعث و القيامة و الحساب و الميزان والجنة و النار ، فقال ذلك لقـــوم أهـــل شرك و أوثان لا يرون بعثا كائنا بعد الموت .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهـــم ، إلى دار جنة أو نار ، يجزون فيها بأعمالهم ؟

قال : نعم ، و الذي يحلف به ، لو أن له بحظه من تلك النار أعظم تنـــور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فينطبق عليه ، و أن ينجو من تلك النار غدا .

قالوا له : ويحك ، وما آية ذلك ؟

قال نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن.

قالوا : ومتى نراه ؟ .

قال سلمة ، فنظر اليهودي إلي وأنا من أحدثهم سنا .

فقال ، إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة فوالله ما ذهب الليل والنهار ، حتى بعث الله تعالى رســـول الله ﷺ وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر به بغيا وحسدا ، فقلنا : ويلك يا فلان ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟!

قال : بلى وليس به .[1]

فقد كان عند هذا اليهودي كل العلم بالإسلام ونبيه وعقيدته .

يعلم أن الله سيجزي الناس بأعمالهم بعد أن يبعثهم ويعلق لهـــــم كتبـــهم في أعناقهم ، فيكون الميزان والحساب وبعد ذلك الجزاء ، إما إلى جنة وإما إلى نار .ولأن من يخاطبهم أهل شرك وأوثان ، فقد كانوا يجهلون ما يعرفه ، وإذ فاجأهم ما سمعوا

[1] – الطبقات الكبرى ٣ / ٤٣٩ ، أسد الغابة ٢ / ٣٣٦

سألوه إن كان يعني ما يقول ، وأن بعد الموت حياة يجزى فيها الناس بأعمـــالهم في الجنة أو في النار ، وقد أقسم ليؤكد قوله و يصف مدى نـــدم المكـــذب و المنكـــر والمقارب للذنوب ، بأنه عندها سيتمنى لو أنهم أسجروا له أعظم تنـــور في الدنيـــا وأدخلوه إياه و أطبقوا عليه فيه حتى تأكله نار الدنيا فذلك كان أرحم له و أهـــون عليه من أن يدخر له العذاب في الآخرة . و حين بدا للقوم أن هذا اليهودي جادٌّ في قوله ، و أنه لا يهزل و لا يدعى فقد طلبوا منه دليلا على قوله ، فأخـــبرهم بـــأن الدليل سوف يأتيهم على صورة نبي من جنوب المدينة ، فهموا من إشارته أنه ربمـــا يأتي من مكة أو من اليمن .

و عندما سألوه عن موعد ظهور هذا النبي كانت إجابته توضح ذلك البعـــد الزماني توضيحا كاملا ، إذ نظر إلى سلمة بن سلامة ، وقال : إن يطل عمر هـــذا الغلام يدركه ويسمع منه مثل ما أخبرتكم .

ثم تكون الآية ، فلم تمر سنوات — أو كما قال سلمة فمر ليل ونهار – وظـهر أمر النبي ﷺ بمكة ، ثم التقى به الأنصار فآمنوا به ،. وبقي هذا اليهودي على ضلالـه وكان حديثه ما زال في الأذهان ، فذكره الناس به : ألست الذي بشـــرنا بمبعـث النبي ﷺ ليكون آية لما أخبرت به من شدة يوم القيامة وقسوة عذاب النار ، وكـــأنهم يهيبون به أن يقي نفسه شرها حتى لا يتمنى ما ذكره من أن الكفار يتمنونه يومئذ .

غلب الكبر والجحود على نفس اليهودي الذي يقول مالا يفعل ، فـــأنكر أن يكون هذا هو النبي الذي بشر به .

و لم يكن هذا اليهودي الذي يسكن في بني عبد الأشهل بدعا بين اليهود ، فقد كان هذا دأبهم مع العرب ، يتعالون عليهم بأنهم أهل كتـــاب والعـــرب أميـــون ، وينذرونهم بأن الغلبة ستكون لأهل الكتاب على الأميين غلبة ليس بعدها هزيمـــة ، وذلك بعد بعثة النبي الخاتم الذي —زعم اليهود–أنهم سيكونون أول من يؤمن بـــه ، أليس مصدقا لما معهم ؟

ألم تأمرهم أنبياؤهم بالإيمان به إذا حان وقت ظهوره ؟.

كان هذا موقف اليهود قبل بعثة النبي ﷺ وبسببهم أصبح العلم به شائعا بين العرب ، ولا يذكر لليهود مأثرة إلاّ في هذا الموقف .

وكان هذا العلم شائعا بصورة أشد عند اليثربيين بسبب كثرة اليهود فيها ، وبسبب العداوة المستحكمة بينهم وبين العرب،وبسبب تعاليهم وحبهم للسلطة ، ورغبتهم في الانفراد بحكم المدينة لشفاء غيظ قلوبهم بإذلال أهلها واستعبادهم ، وقد تمكنوا من ذلك في بعض الأحيان فقاسى العرب منهم الأمرين ، فأصبحوا أكثر من اليهود استشرافا لظهور ذلك النبي الذي يحقق الله الغلبة لمن يتبعه فلما بعث الله هذا النبي الخاتم المكتوب في التوراة و الإنجيل كان اليهود أول من جحد نبوته و كذبه وناصبه العداء .

آمن العرب به تبعا لبشرى اليهود و استفتاحهم به ، و كذب اليهود بما يعرفون أنه الحق ،وسجل الله عليهم ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز ، منها ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ،وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ .[1]

وفي موضع آخر من نفس السورة ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [2]

و في آل عمران ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

لقد تحدثت سور شتى من سور القرآن الكريم عن مواقف اليهود وأفاعيلهم

[1] - البقرة /٨٩/ ، ٩٠

[2] - البقرة / ١٠١

[3] - آل عمران / ٧٠ ، ٧١

وكيدهم ومكرهم ، وحربهم لله ورسوله ، ولا يزال التاريخ يسجل عليهم ذلك .

لقد استقبل اليهود الإسلام ونبيه بشرّ ما يستقبل به أهل دين سماوي رسولا يعرفون صدقه ، ودينا يعلمون أنه الحق .

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب و الشبهات والفتن يلقونها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنونها .

شككوا في رسالته و هم يعرفونه كما يعرفون أبناء هم.

احتضنوا المنافقين وأمروهم بالشبهات ينشرونها في الجو وبالتهم والأكاذيب يلصقونها بالمسلمين .

نقضوا عهودهم معه عهدا وراء عهد وتحرشوا بالمسلمين وألبوا المشركين عليهم مثلما حدث بعد بدر و مثلما حدث قبل الأحزاب .

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام و المسلمين ، و من أمثلة ذلك :

- هم عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها عثمان ، رضي الله عنه ، وانتثر فيها عقد الجماعة المؤمنة .
- هم رؤوس الفتنة فيما وقع بين عليّ ومناوئيه رضي الله عنهم .
- قادوا حملة الوضع للحديث الشريف والسيرة النبوية وروايات التفسير .
- تولوا كبر التمهيد لغارات التتار التي أدت إلى تقويض عاصمة الخلافة في بغداد
- قاموا بجهود جبارة ناجحة لهدم دولة الخلافة في استامبول
- لا يزالون وراء كل كارثة تحل بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض .
- فهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي .
- وهم المتحكمون في وسائل توجيه الرأي في العالم من وسائل إعلام ، ومراكز بحث ، ووسائل ترفيه .

إنها حرب عقائدية ، ولذلك فهي مستمرة ، لأن الإسلام بيّن زيف عقيدتهم التي انحرفوا بها عن منهج الله في الأرض .

لقد أسقط الإسلام ادعاءهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وفضح غيظ قلوبهم، وأظهرهم على حقيقتهم الضئيلة الذليلة الحاقدة الشريرة ، فلم يعد لهم فضل على العالمين ، فنكأ جراحهم ، وفاض منها القيح والصديد ، وانتشرت رائحة النتن من قلوبهم وأفواههم .

يقول الشهيد سيد قطب : إنما معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها ، ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين ـ اليهود والنصارى ـ يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى في خبث ومكر وتورية .

إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم و عقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ومن ثم استعد الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة ، لم يعلنوها حربا باسم العقيدة على حقيقتها خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها ، إنما أعلنوها باسم الأرض و الاقتصاد و السياسة والمراكز العسكرية وما إليها ، وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها ولا يجوز رفع رايتها و خوض المعركة باسمها فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة و حماستها بينما هم في قرار نفوسهم يخوضون المعركة أولا و قبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي ناطحوها طويلا فأدمتهم جميعا .[1]

وبعد ذلك نعاهدهم و نأمن لهم ونعطيهم ذمتنا ثم ينقضونها و يفاجئنا الأمر لأننا غفلنا أو تغافلنا أن نقض العهود من أبرز سماتهم و أن الغدر أخص خصائصهم.

مع الصف الأول

بقي سلمة بن سلامة — شأن كثيرين غيره ممن يبغضون منطق التعالي و التعالم عند اليهود يترقب تصديق نبوءة اليهودي الذي يجاورهم ، حتى جاء إخوانهم من رحلة الحج و التجارة يخبرونهم باللقاء مع النبي ﷺ في منى ، فلم يتردد لحظة واحدة

[1] – في ظلال القرآن

في دخول الإسلام وامتلأ قلبه بالأمل في أن يكون عرب يثرب على رأيه في الإسراع إلى الإيمان بهذا النبي ، لعلهم بذلك ينالون من هؤلاء اليهود و يسقطون كبرياءهم المقيتة ، و لم يخب ظنه و لم يطل انتظاره فقد كانت قلوب معظم أهل يثرب تنطوي على ذات المشاعر و الأحاسيس التي ينطوي عليها قلبه، فانتشر الإسلام في أهل يثرب كما ينتشر النور في دياجير الظلام ثم تسارعت الأحداث فكانت العقبتان ومن ثم الهجرة المباركة إلى المدينة المنورة بالإسلام أولا ثم بنبي الإسلام ﷺ وحوارييه من المهاجرين ، ولكن الصورة حدث لها غير قليل من التبدل عن الذي صوره له خياله، إذ لم تقتصر العداوة للنبي ﷺ ولدينه على اليهود وحدهم ، وإنما اشتمل معسكر الكفر على عناصر أخري مثل النصارى والمنافقين بالإضافة إلى عبدة الأصنام ، فأيقن سلمة كما أيقن سائر المسلمين أن المعركة قاسية شديدة الشراسة ، وأنها مستمرة ، وأنها في حاجة لقلوب من حديد ،تجعل المسلم في رباط إلى يوم القيامة ، وتجعل الوصف الرديف للمسلم هو وصف المجاهد وأن الجهاد ليس غارة تشن وينتهي أمرها، ولكنه فريضة بلغ من حفاوة الدين بها أن بناتت ذروة السنام لشعائر الإسلام، وأن القائم بها باع لله نفسه وماله في مقابل الجنة ، وأن القاعد عنها نكث بعهده مع الله ، ومن نكث فإنما ينكث عن نفسه والله غني عنه .

كان لسيف سلمة مضاء ، وكان في لسانه حدة ، وكان لمنطقه سخرية تدمي أحيانا ، وكان يستخدم كل هذه الأدوات في معافسة أمور الجاهلية ، فأشرعها جميعا في مجاهدة أعداء الإسلام ويغلظ بها عليهم .

هيأ الله عز وجل عباده المؤمنين للجهاد ، ودربهم عليه في مجموع الغزوات والسرايا التي سبقت بدرا، وذلك لكي يتخلصوا نهائيا من نسق الحروب الجاهلية وآلياتها ، ولكي يتعاملوا مع نسق الإسلام وآلياته في مواجهة أعدائه ، دربهم على نبل الهدف وأهمية القيادة ، وطريقة الشورى ، وضرورة الوحدة .

بين لهم في هذه الغزوات والسرايا نبل الغاية التي تهدف إلى إرضاء الله عز وجل وليس لاتباع هوى النفس ، وأن الجهاد ليس المقصود به الحرب والتقتيل وإنما

أن تكون كلمة الله هي العليا ،وأن الإخلاص والصبر يكثران العدد ويعوضان نقص العدة ، ! ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .[1]

ثم كان الخروج إلى بدر ،وكان جيش المسلمين سبعين بعيرا يعتقبونها، يعتقب كل ثلاثة بعيرا ، وكل أربعة بعيرا ، وكان النبي ﷺ أحد ثلاثة يتبادلون ركوب بعير واحد .

يقول ابن مسعود : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، وكان أبو لبابة وعلي زميلي رسول الله صلى الله عليه و سلم ؛ فكانت عقبة النبي ﷺ فقالا : نحن نمشي عنك ، فقال ، ما أنتما بأقوى مني و لا أنا بأغنى عن الأجر منكما ، فلما رد النبي ﷺ أبا لبابة إلى المدينة من الروحاء كان ثالثهما مرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه .

قال ابن اسحق يصف طريق النبي ﷺ : خرج من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ثم على العقيق ثم على ذي الحليفة ،ثم على أولات الجيش ، ثم مر على تربان ثم على ملل ثم على غميس الحمام ثم على صخيرات اليمامة ، ثم على السيالة ثم على فج الروحاء ثم على شنوكة وهي الطريق المعتدلة حتى إذا كان بعرق الظبية لقي رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس أي عن أهل مكة أو قافلتهم فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له الناس : سلم على رسول الله ﷺ فقال : أو فيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم، فسلم ثم قال : لئن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه .

غضب سلمة من منطق الرجل ، ورأى أنه هازل في موطن جد ، وأنه يسخر من النبي ﷺ وأنه مصر على كفره ، إذ ما قيمة هذا السؤال ؟ وماذا يكون رد فعله لو أجابه النبي ﷺ وهو لم يتحقق من صدقه فهل سيقول له : أنتظر حتى تضع ناقتي ما في بطنها فإن كان كما قلت أسلمت ؟ وهل صدق النبي يكون بأن يعرف ما في بطن الناقة والله وحده علام الغيوب ؟ يرى سلمة أن الأحرى بالرجل أن يسأل عن

[1] – الأنفال / ٦٦ .

شعائر الإسلام وتوجيهاته وآدابه، فإن لم يسأل فلينصرف دون أن ينشغل بما في بطن ناقته ، عن معرفة ما يصلحه .

رأى سلمة أن لسانه كفيل بمجاهدة سخرية هـذا الرجـل ، فمـا إن رأى الكراهية في وجه النبي ﷺ من سؤال الرجل ، حتى أقبل على الأعرابي ، وقال لـه : لا تسأل رسول الله ﷺ وأقبل عليّ ، وأنا أخبرك عن ذلك لقـد نـزوت علـى ناقتك، ففي بطنها منك سخلة .[1]

كانت الضربة قاسية على الرجل ، وكانت أشد عليه مما أراد هو أن يسـخر من النبي ﷺ فاستخذى على نفسه حتى أشفق عليه النبي ﷺ وأوقف سلمة عـن أن يترك لسانه ينطلق في الرجل ، فقال : مه يا سلمة لقد أفحشت على الرجل .

ثم كان سلمة من أشد الناس على المشركين عند احتدام المعركة ، حيث مـلأ الإسلام قلوب المؤمنين مضاء ، وخايلتهم أضواء الجنة ، وصافح عبيرها أنوفـهم ، حتى قال عوف بن عفراء للنبي ﷺ : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟

قال : غمس يده في العدو حاسرا .

فترع عوف درعا كانت عليه ، فقذفها ثم أخذ سيفه ، فقاتل حتى قتل .[2]

وفي ولاية علي رضي الله عنه خطب في الناس ثم سألهم :يا أيها الناس :مـن أشجع الناس ؟

قالوا: أنت يا أمير المؤمنين .

فقال :أما إني ما بارزت أحد ا إلا انتصفت منه ؛ولكن هو أبو بكر ، إنا يـوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشا فقلنا من يكون معه لئلا يهوى إليه أحد إلا أهـوى إليه فتقدم أبو بكر فهذا أشجع الناس.[3]

وكان من عادة النبي ﷺ إذا انتهى من غزوة أقام في موضعها ثلاثة أيام ، فأقـلم

---

[1] – سير أعلام النبلاء / ٢

[2] – مسند الإمام أحمد ٤٦٧/٣ .

[3] – الإصابة ٢٣٧/٤ .

مثلها في بدر ، وجاءه جبريل على فرس أنثى معقود الناصية ، وقد عصم ثنييه الغبار، فقال : يا محمد ، إن ربي بعثني إليك يأمرني ألاّ أفارقك حتى ترضى ، فهل رضيت ؟ قال : نعم .

وأرسل النبي ﷺ بين يديه بشيرين إلى أهل المدينة ، هما عبد الله بن رواحه لأهل العالية وزيد بن حارثة لسائر دور أهل المدينة ، فجاءا يوم الأحد حين اشتد الضحى ، وجاء عبد الله بن رواحة ينادي على راحلته : يا معشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وأبو جهل ، وقتل زمعة بن الأسود وأسر سهيل بن عمرو .

قال عاصم بن عدي : فقمت إليه فنحوته — يعني انتحيت به جانبا — فقلت : أحقا يا ابن رواحة ؟ فقال إي والله ، وغدا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين ، ثم تتبع دور الأنصار دارا ، دارا ، والصبيان ينشدون معه ، ويقولون : قتل الفاسق أبو جهل ، حتى قدم إلى دار بني أمية .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء ، يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى ، صاح على راحلته : قتل ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وقتل أمية بن خلف وأبو جهل وأبو البختري و زمعة بن الأسود ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرين ، فجعل بعض الناس لا يصدقون زيدا ، ويقولون ما جاء زيد إلا فلا — أي هربا و فرارا – حتى غاظ المسلمين ذلك و خافوا ، و قال رجل من المنافقين لأسامة : قتل صاحبكم و من معه ، و قال آخر لأبي لبابة ، وقد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون فيه أبدا ، وقد قتل علية أصحابه ، قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، و هذا لا يدري ماذا يقول من الرعب و قد عاد فلا ، فقال أبو لبابة : يكذب الله قولك ، و قالت اليهود : ما جاء زيد إلا فلا ، قال أسامة : فجئت حتى خلوت بأبي فقلت أحق ما تقول ! ؟

فقال : أي و الله حق ما أقول يا بني ، فقويت نفسي و رجعت إلى ذلك المنافق فقلت : أنت المرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم و بالمسلمين ،

و لنقدمنكم إلى رسول الله ﷺ إذا قدم فليضربن عنقك ، فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه .[1]

يقول أسامة : فوالله ما صدقت أن رسول الله ﷺ حيّ حتى رأينا الأسارى وقد جاء بهم صالح شقران مولى النبي ﷺ وقد خرج رءوس الناس إلى الروحاء يستقبلونه ، ويهنئونه بما فتح الله عليه ، وقالوا له : لو كنا نظن أنه عدو ما تخلفنا عنك ، ولكنا ظننا أنها العير ، فالحمد لله الذي أظفرك و أقر عينك .

أراد سلمة أن يعبر عن شدة تأييد الله للمسلمين وشدة خذلانه للمشركين ، فقال للمهنئين : ما الذي تهنئوننا به ؟ والله إن لقينا إلاّ عجائز صلعا كالبدن المعقلة فنحرناها .

فتبسم النبي ﷺ من قول سلمة ، ثم أقبل عليه وقال : أي ابن أخي ، أولئك الملأ من قريش ، أي ،هؤلاء رؤساء مكة وأشرافها .[2]

وابتهج السلمون في كل مكان بهذا النصر المبين ، حتى إن النجاشي ملك الحبشة المسلم أرسل إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه من مهاجرة الحبشة ، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه ملابس رثة قديمة ، ويجلس على الأرض ، قال جعفر : فأشفقنا منه وهو على تلك الحال ، فلما رأى ما في وجوهنا قال : إني أبشركم بما يسركم ، إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي ، فأخبرني أن الله عز وجل قد نصر نبيه ، وأهلك عدوه ، وأسر فلان وفلان ، وقتل فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك ، كأني أنظر إليه ، كنت أرعى فيه عندما أسرت صغيرا عند سيد من بني ضمرة .

فقال له جعفر : ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط ، وعليك هذه الأخلاط ؟

قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ، إن حقا على عباد الله أن يحدثوا الله

---

[1] – البداية والنهاية / ٣

[2] – لأسد الغابة ٢ / ٣٣٦

تواضعا عندما يحدث لهم منه نعمة ، فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت له هـــذا التواضع .

وسمع أهل مكة غداة بدر هاتفا من الجن يقول :

أزار الحنيفيون بدرا وقيعــة سينقض منها ركن كسري وقيصــرا
أبادت رجالا من لؤي وأبرزت خرائد يضربن الترائب حســرا
فيا ويح من أمسى عدو محمد لقد جار عن قصــد الهدى وتحـيرا

ويبدو أن مقالة سلمة عن المشركين بأنهم كانوا كالإبل المعقلة تمثل إحساســا قويا عند المشركين أنفسهم ، فقد سأل أبو لهب — و لم يشهد بدرا — أحد النــاجين من المشركين عن الحال في بدر ، فقال الذي شهدها : هلم إليّ فعنــدي لعمــر الله الخبر ، فجلس إليه في حجرة زمزم ، والناس قيام عليه ، فقال أبو لهب : يـــا ابــن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس ؟

قال : والله ما هو إلاّ أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شــاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقد رأينا رجالا بيضـــا على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تترك شيئا ولا يقوم لها شئ .[1]

قال أبو رافع — مولى العباس وكان مسلما سرا ، وكـــان جالســا ينحــت الأقداح ومعه أم الفضل زوجة العباس — فدخل أبو لهب يقص عليهما ما سمعه عنــد زمزم فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت : تلك والله الملائكة .

قال : فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة ، فبادرته ، فـلحتملني ، وضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني — وكنت رجلا ضعيفا — فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فبلغت رأسه شجة منكــرة ، وقالت : أستضعفته أن غاب عنه سيده ؟

فقام أبو لهب موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلاّ سبع ليال حتى رماه الله بالعدســة

[1] – الطبقات الكبرى ٣ / ٤٣٩

فقتلته ، وتركه ابناه ما دفناه ثلاثا تقززا وخوفا من العدوى حتى أنتن ، فقال لهما رجل من قريش : ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه .[1]

قالا : إنا نخشى عدوى هذه القرحة .

قال : انطلقا ، وأنا أعينكما .

فوالله ما غسلوه إلاّ قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه ، ثم احتملوه إلى أعلا مكة فأسندوه إلى جدار ، ثم رضخوا عليه بالحجارة .

على الطريق

بشر النبي ﷺ أهل بدر بأن الله لعله اطلع عليهم ثم قال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم

و بشر الله أهل الحديبية بأنه رضي عنهم إذ بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة وبشرهم بالفتح القريب .

وبشر جبريل عليه السلام الثمانين الذين صمدوا يوم حنين .

و بشر بين ذلك أصحاب أحد الخندق و الصابرون في خيبر.

و قد دخل سلمة بن سلامة في هذه البشريات، فقد شهد كل هذه المشاهد و غيرها من أيام الإسلام مشرعا سيفه و لسانه للدفاع عن الإسلام و المسلمين منذ بايع عند العقبتين و هو في الساحة لا يفارقها مع النداء يجيب دعوة الداعي إذا دعاه بعلم وفقه وتبصر وقوة جنان و لسان و سنان.

قال محمود بن جبيرة : دخلت مع سلمة بن سلامة إلى وليمة و كان سلمة على وضوء فأكلوا و خرجوا ثم توَضأ سلمة فقلنا : ألم تكن على وضوء ؟ فقال بلى ولكن الأمور تحدث ، وهذا مما أحدث .

رابط سلمة مع النبي ﷺ حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ورابط مع أبي بكر الصديق فكان من سيوفه أينما وجهه كان الصارم البتار .

---

[1] – البداية والنهاية / ٣

ورابط مع الفاروق عمر بن الخطاب مع شيخوخته فما فل حسامه ولا فترت عزيمته ولا برد مضاؤه وولاه الفاروق على اليمامة و نحن نعلم كيف يختار الفاروق ولاته فلا يختار الفاروق واليا إلا إذا خبر حزمه و عدله وسعة أفقه وحسن إدارته وقوة إيمانه و فقهه ونصحه للمسلمين وزهده في الدنيا ولقد رأى عمر كل ذلك في سلمة . و الحقيقة أن أمر سلامة وصفاته لا يخفى على المسلمين كافة لأنه من أسرة وهبت نفسها لله ويكفي أن أخاه سلكان بن سلامة المعروف بكنيته (أبو نائلة) الذي كان أحد الذين وهبوا أنفسهم لله مع فتية مجاهدين فدائيين لقتل كعب بن الأشراف و كان أبو نائلة هو الذي استدرجه من حصنه و خدعه ثم هو الذي أمسك برأسه حتى قتله إخوانه المجاهدون .

بقي سلمة على اليمامة ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه و عاش زمنا طويلا في خلافة ذي النورين ثم وهن الجسم و لم تلن العزيمة ورق الجلد وتضاعف الإيمان ثم أوى إلى المدينة حيث احتضنه ثراها الطاهر عام أربعة و ثلاثين وهو في الرابعة و السبعين من عمره حيث حشر بإذن الله في زمرة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

قتادة بن النعمان

أبوه النعمان بن زيد من بني ظفر الأوسي .
وأمه أنيسة بنت قيس من بني عدي بن النجار بن الخزرج .
و كنيته أبو عمر وأبو عبد الله .
وصفته أحد الرماة المذكورين . [1]
و أوسمته لا يكاد يحصيها العدد فهو أحد السبعين في العقبة ، و أحد الأبطال في بدر .
و صاحب المقام المحمود في أحد .
و القرآن الكريم رفع ذكره .
و النبي ﷺ أعلى قدره .

وحتى نقتبس من نوره و ننشق من ريحه الطيب دعونا ندلف إلى عالمه الرحيب الذي صنعه له الإسلام و هيأه له ليكون فيه علما ولمن جاء من بعده أسوة حسنة.

مع الطليعة

لا يشغلنا من جاهلية قتادة إلاّ ما كان فيها من الخير ، إذ يهدر الإسلام كل شر في جاهلية الإنسان متى تخلص من ظلامها وهدي إلى الحق وأبصر بنوره ، ويبقى له في صحيفته ما سلم من الفطرة في جاهليته ، وهي صفات الخير وأعماله ، ومن الخير الذي تحلى به قتادة في الجاهلية وبقي معه في إسلامه ، وتدعم واستوى على سوقه ، شجاعة قلبه ، وسداد رميته ،وتطلّعه إلى الأفضل والأكمل والأشرف .بلغت أنسام الإسلام هواء يثرب و قتادة على مشارف الأربعين ، حيث بلوغ الأشد وتمام العقل واكتمال النضج ، فلما عرض الإسلام على عقله ركن إليه ، وعرضه على قلبه

[1] - الطبقات الكبرى ٣/ ٤٥٢

فاطمئن به ، وعرضه على ملكاته وفطرته فاستشرفت إليه وأمنت له ، وكان شجاعا راميا فوجد أن الإسلام يرضي حب المغامرة الذي يسكن نفس الشجاع القــــويّ ، والبون شاسع بين مغامرات السطو والإغارة وما تخلفه من مظـــالم وآلام ، وبـــين أهداف سامية عادلة تبذل فيها الطاقة ، وتستثمر في سبيلها القوة ، وتستريح بعدهـــا النفس المطمئنة .

وإذا كان قتادة قد فاتته العقبة الأولى ،وهو الحريص على ألاّ تفوته مكرمـــة، فإنه كان أحد السبعين الذين شهدوا العقبة الثانية .[1]

وقد رأى فيها قتادة مغامرة تتوقى الخطأ، وتلتزم الحذر والحيطة وخداع العدو

يقول كعب بن مالك : خرجنا إلى الحج ،وواعدنا رسول الله ﷺ العقبـــة في الشعب الأيمن ، وقد نبهنا ألاّ نوقظ نائما ، ولا ننتظر غائبا ، وأن نكتم من معنا مـــن المشركين من قومنا أمرنا ، و كان من جملة من معنا من المشركين عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتنا فكلمناه فقلنا له : يا أبا جابر إنك ســـيد مـــن ســـاداتنا وشريف من أشرافنا و إنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار ثم دعونـــاه إلى الإسلام فأسلم و أخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة فمكثنا تلـــك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رســـول الله ﷺ بعد هدأة الناس يتسلل الرجل و الرجلان تسلل القطا، مستخفين حـــتى إذا اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة و سبعون رجلا و امرأتان ، فلا زلنا ننتظر رسول الله عليه وسلم حتى جاءنا و معه أبو بكر و علي و العباس عمـــه، فـــأوقف العباس عليا على فم الشعب عينا له ،و أوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عينا لـــه و لم يكن معه عند بيعتنا إلا عمه العباس .

[1] – سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٢٢

تكلم العباس ، وأجابه البراء بن معرور قائلا : إنا والله لو كان في نفوسنا غير ما نطقنا به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ

ثم قالوا : تكلم يا رسول الله ، فخذ لربك ولنفسك ما أحببت .

فقال النبي ﷺ : أشترط لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم .

قال عبد الله بن رواحة : فإذا فعلنا فما لنا ؟

قال : لكم الجنة .

فقالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل .

ثم قالوا يا رسول الله ، نبايعك ؟

فتكلم النبي ﷺ فتلا من القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ، ورغّب في الإسلام ، ثم قال : تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم ، وأن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة .

فأخذ البراء بن معرور بيد النبي ﷺ ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع به أزرنا ، فنحن والله أهل الحرب والحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر .وبينما البراء يكلم النبي ﷺ قال أبو الهيثم بن التيهان : نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف .

فقال العباس : - وقد خشي اختلاط الأصوات بعد أن غلبهم الحماس - : اخفوا جرسكم ، فإن علينا عيونا .

وتوالت كلمات المبايعين تحمل ما تجيش به مشاعر الإيمان والحب في قلوبهم .

-أبو الهيثم بن التيهان : أبايعك على ما بايع عليه الاثنا عشر نقيبا موسى بن عمران عليه السلام .

– عبد الله بن رواحة : أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى بن مريم عليه السلام .

– أسعد بن زرارة :أبايع الله عز وجل يا رسول الله ، وأبايعك على أن أتم عهدي بوفائي ، وأصدق قولي بفعلي في نصرك .

– النعمان بن حارثة : أبايع الله عز وجل وأبايعك يا رسول الله على الإقدام في أمر الله عز وجل ، لا أرأف فيه القريب ولا البعيد .

– عبادة بن الصامت : أبايعك يا رسول الله على أن لا تأخذني في الله لومة لائم

– سعد بن الربيع : أبايع الله وأبايعك يا رسول الله على أن لا أعصي لكما أمرا ولا أكذبكما حديثا .[1]

ورغم الحذر فإن قريشا بلغتها أنباء البيعة فجاء أشرافهم يعاتبون سادة اليثربيين الذين أنكروا أن شيئا من ذلك قد حدث ، حتى غضب منهم عبد الله بن سلول وقال : هذا باطل ، وما كان هذا ، وما كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني .

ولكن قريشا تحققت من صحة الخبر ولكن بعد رحيل اليثربيين فاتبعوهم حتى أدركوا سعد بن عبادة و المنذر بن عمرو، ثم أفلت المنذر ، و بقي معهم سعد بن عبادة ، فربطوا يده في عنقه ، ولازالوا يلطمونه على وجهه ويجذبونه من شعره الغزير حتى أدخلوه مكة ، فاقترب منه أبو البختري بن هشام وقال له :

و يحك أما بينك و بين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟

قال : بلى كنت أجير لجبير بن مطعم تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي وللحارث بن حرب بن أمية .

[1] – مسند الإمام أحمد ٤ / ١٥ ، ٦ / ٣٨٤

فقال : ويحك ،فاهتف باسم الرجلين،فهتف سعد فذهب أبو البختري يبحث عنهما حتى و جدهما في المسجد فأخبرهما أن رجلا من الخزرج يضرب بـــالأبطح يـــهتف باسميهما فقاما إليه فخلصاه .

يقول سعد : بينما أنا مع القوم أضرب إذ طلع علي رجل أبيض وضيء شعشـــاع طويل زائد الحسن ، فقلت في نفسي : إن يكن عند أحد من القوم خير فعند هذا ، فلما دنا مني رفع يديه ، ولكمني لكمة شديدة ، فقلت في نفسي ، والله ما عندهـــم بعد هذا خير ، وكان هذا الرجل هو سهيل بن عمرو .

هذه النتائج السريعة ، ورد الفعل المكي المباشر الذي صاحب البيعة وأعقبـــها يلبد سماء العلاقة بين القريتين ــ مكة ويثرب ــ بالسحب ، ويشـــير إلى مواجهـــة وشيكة ستحدث بينهما ، وهذا ما يحفز المقاتل إلى أن يشـــحذ عزمـــه وســـيفه ، ويطمئن على دروعه وشجاعته ، ويمني نفسه بمواجهة عنيفة ، هدفها واضح أمـــام عينيه ،ومذاقها يختلف عما تعود عليه من قتال كان يبعثه الظلم و العدوان وزاد هـذا الاحتمال بهجرة المسلمين المكيين إلى يثرب ، ثم بهجرة النبي ﷺ التي انقسم العـــرب بعدها إلى معسكرين اثنين ، معسكر الإسلام في المدينة المنورة ، ومعسكر الشرك في سائر الجزيرة تقوده مكة بثقلها السياسي والديني والاقتصادي .

الدرع الواقية

حانت الفرصة لقدرات قتادة أن تبرز ، و لمواهبه أن تبدو مشـــرقة ناصعـــة البياض ، فكانت بدر ، و قد تعدل فيها مفهوم القتال ، ووضح هدفه واســـتقامت غايته ، وأصبح القتال جهاداً ، وهو ذروة سنام الإسلام ، وهدفه إرضـــاء الله عـــز وجل ، وإعلاء دينه ، ونشر كلمته ورفع لوائه ،وغايته جنة المأوى حيث لا عـــين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وانتصر المسلمون في بدر بسلاح الإيمان لا سلاح الحديد ، وبقوة اليقـــين لا بقوة النار، و برمي الله لا رمي العباد ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْـتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]

لقد برئ المسلمون في بدر من حولهم و قوتهم إلى حول الله عز و جل وقوتـه فعندما عرفوا أن الله وعدهم إحدى الحسنين القافلة أو الجـــهاد ، ورأوا أن قوتهـم ليست قوة الجهاد في ميزان الحروب فقد ظنوا أن القافلة هي موعودهم ثم أفلتـــت القافلة وجاءت قريش بأفلاذ أكبادها وعددها وعديدها وضغائنها وأحقادها ، علموا هنالك أن الله قد اختار لهم ذات الشوكة وليس لهم شوكة فلم يهنوا و لم يضعفوا بل قالوا للنبي ﷺ : لوا استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وقالوا لـــه : لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّـــا هَاهُنَـــا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .[2]

يتقدم شيوخهم للمبارزة ، ويتربص فتيانهم بمغاوير الشـــرك وصنـــاديده ، لا يداخلهم تخاذل ، و لا يعتريهم وجل، لقد هداهم يقينهم إلى أن عليهم أن يقاتلوا بما معهم وعلى الله أن يقتل عدوهم و أن عليهم أن يطلقوا أسهمهم وعلى الله رميها في نحور أعدائهم .

إنهم يجاهدون في الله ويقاتلون للشهادة ويرغبون في النصر فيلوذون إلى جناب إلههم وسيدهم ، يضرعون بالدعاء ويستبشرون بالفوز ، ويسمعون قائدهم العظيم يقول : لكأني أنظر إلى مصارع القوم ، ويعرفون حرصه عليهم ، وتقديره لهم وهـــو في ضراعته يقول : اللهم نصرك الذي وعدت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلـــن تعبد في الأرض بعد اليوم فيطمعون في النصر ، ويطمحون إلى الجنـــة ، ويعيشـــون أوقاتا فريدة في حياتهم لم تمر عليهم من قبل ، و لم يستشعروها بهذا الجلال من بعد .

[1] – الأنفال / ١٧

[2] – السيرة النبوية ٣ / ٣٠

شتان بين شعورهم وهم منطلقون إلى بدر ليلحقوا بالقافلة ، وبين شعورهم وهم يتمنون أن يكونوا هم القافلة ، قافلة الشهداء المنعمين المستبشرين ، لقد كانوا راغبين في الأولى ، أما الآن فهم يحرصون على الثانية ، حتى إن أحدهم ليلقي بغدائه، وهو تمرات في يده ، ويقول : بخ بخ أليس بيني وبين الجنة إلاّ هذه التمرات ، إنها لحياة طويلة ، ثم يلقي بالتمرات من يده ، ويخوض الغمار ليجد أهله في الجنة ينتظرونه بفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون .[1]

رمى قتادة في بدر ليذود عن النبي ﷺ الذي هو أولى به من نفسه ، وما تكون نفسه إلى جنب نفس النبي ﷺ معلمه ومرشده وهاديه إلى الطريق المستقيم .

إن نفس قتادة مهما علت — وهي عالية رفيعة — هي نفس إنسان أقصى ما تفعله أن تهتدي إلى الصواب وتسلكه ، أما نفس معلمه فهي النفس التي تشع نورا وهداية ، وهي نفس واحدة لكنها قادرة على إصلاح فساد العالم كله ، وتقويم ما أفسد الشيطان فيه ، وتجلو وجه الحق الذي طمره الضلال بالأباطيل ، وغطاه بالانحراف عن سواء السبيل شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

ومن علامات رضا القائد عن المجاهد قتادة أنه أهداه قوسا رمى بها في بدر ورمى بها كذلك في أحد .

وفي أحد قدمت قريش بثأرها وأحقادها وشدة عداوتها وضراوة بأسها في ثلاثة آلاف مقاتل كافر من جند الشيطان ، من قريش ومن حلفائها ، ومن الأحابيش ،و الأحابيش الذين حالفوا قريشا في أحد هم بنو المصطلق ، وبنو الهون بن خزيمة ، وقد اجتمعوا عند جبل حبشي أسفل مكة ، وتحالفوا على أنهم مع قريش

[1] – الواقعة ٢٠ – ٢٣

يدا واحدة ما سجى ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشيّ في مكانه ، فسموا أحابيش لتحبشهم أي تجمعهم عند جبل حبش .[1]

وقال النبي ﷺ لأصحابه : رأيت البارحة في منامي خيرا ، رأيت بقرا تذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ذي الفقار ثلما ،ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، وأني مردف كبشا .

قالوا : ما أولتها يا رسول الله ؟

قال : أما البقر فناس من أصحابي يقتلون ....

وأما الثلم الذي رأيت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي عترتي يقتل .

وبعد هذه الرؤيا دخل المدينة رجل من غفار برسالة من العباس تحمل خبر خروج قريش لملاقاة المسلمين .

دفع النبي ﷺ الرسالة إلى أبيّ بن كعب فقرأها عليه ، ثم استكتمه ، أي طلب منه ألا يذكر خبرها لأحد ، ثم نزل النبي ﷺ على سعد بن الربيع في قباء فأخبره بكتاب العباس ، فقال: إني لأرجو أن يكون خيرا ، ثم استكتمه إياه .

فلما خرج من عنده قالت امرأة سعد له : ما قال لك ؟

قال : لا أم لك ، ما أنت وذاك ؟.

فقالت : لقد سمعت ما قال لك ، وأخبرته بما سمعت ، فاسترجع ، وأخذ بيدها ، ولحق بالنبي ﷺ فأخبره خبرها ، وقال : يا رسول الله ، إني خفت أن يفشو الخبر ، فترى أني أنا المفشي له وقد استكتمتني إياه .

فقال النبي ﷺ : خلّ عنها .[2]

وكان من رأي النبي ﷺ أن لا يخرج إلى المشركين ، فإما رجعوا من مكانهم، وإما زحفوا إلى المدينة فيقاومهم كل أهل المدينة من مقاتلين ونساء وأطفال ، ولكن شباب المجاهدين الذين حرموا من فضيلة الجهاد في بدر أرادوا أن ينالوا شرفه في أحد

[1] – إمتاع الأسماع / ٣

[2] – شذرات الذهب ١/ ٣٤

فغلبت حماستهم رزانة العقلاء ، واستجاب النبي ﷺ لهم فعزم على الخروج ليفهموا[1] الدرس بعدئذ في أن لا تغلب الحماسة رؤية التفكير والتدبر في العواقب ، فالحماس مرغوب فيه إذا كان روحا جهادية تقبل على إعلاء كلمة الله ونصرة دينه إذا اجتمعت له شرائطه التي من أهمها حسن التدبير و الحذر و طاعة القائد ، والأخذ برأي أولي النهي والأحلام .

وكان الدرس الثاني في أحد ـ وكم في أحد من دروس ـ هو عصيان الرماة لأمر النبي ﷺ أن يظلوا في أماكنهم يصدون خيل المشركين ، وقد قال لهم : لا تبرحوا أماكنكم حتى أوذنكم ، حتى وإن رأيتمونا تخطفنا الطير ، وإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا أماكنكم حتى أرسل لكم ، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا ، وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل ، إنا لا نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللهم إني أشهدك عليهم .[1]

لكن معظم الرماة تأولوا فعصوا حين رأوا اندحار المشركين وفرارهم ، وانشغال المسلمين بجمع الغنائم ، فرأوا أن لم تعد حكمة لبقائهم في أماكنهم ، وأن عليهم مساعدة إخوانهم فكانت عاقبة عصيانهم كرة المشركين من وراء ظهور المسلمين حيث ترك الرماة أماكنهم وكان المقصد الأول منها هو قتل النبي ﷺ وتنبه لذلك نفر من المجاهدين مثل أبي طلحة وأبي دجانة والحارث بن الصمة وسعد بن أبي وقاص ، وقتادة بن النعمان ، وكان النبي ﷺ قد أهدي له قوس فأهداه قتادة، فكان يرمي به عن النبي ﷺ .[2]

يقول قتادة : أهدي إلى النبي ﷺ قوس ، فدفعها إلي يوم أحد ، فرميت بها بين يديه حتى اندقت سيتها (أي انكسر حدها و رأسها و لم تعد صالحة للاستخدام)

[1] - مجمع الزوائد ٢ / ٣١٨

[2] - السيرة النبوية ٣ / ٣٠

و لم أزل على مقامي نصب وجه النبي ﷺ ألقى السهام بوجهي كلما مال السهم منها إلى وجهه ميلت رأسي لأقي وجه النبي ﷺ بلا رمي أرميه ،وكان أبو دجانة سماك بن خرشة موقياً لظهر النبي ﷺ حتى امتلأ ظهره سهاماً ،وكان آخر ما أصابني سهمًا ندرت منه حدقتي(أي خرجت منه عينيه و بقيت معلقة بعرق) فرفعتها بيدي ،وأشار القوم عليّ أن أقطعها فأبيت حتى أتيت النبي ﷺ فقال لي : (وقد دمعت عيناه) إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها ودعوت الله تعالى لك فقلت : يا رسول الله إن الجنة لجزاء جزيل و عطاء جليل و إني مغرم بحب النساء وإن لي امرأة أحبها و أخشى أن تراني فتقذرني وأخاف أن يقال عليّ أعور ولكن تردها و تسأل الله تعالى لي بالجنة .[1]

فرفعها النبي ﷺ وردها بيده الشريفة إلى مكانها وقال : اللهم إن قتادة فدى نبيك بوجهه اللهم ق قتادة كما وقي وجه نبيك واجعلها أحسن عينيه و أحدها نظراً فكانت أحدّ العينين وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى .

روي ابن عبد البر: أن رجلاً من أحفاد قتادة وكان محدثاً عالما بالسير دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال له عمر : من الرجل ؟ فقال :

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسن ما عين و يا حسن مارد

فقال عمر يحدث جلساؤه :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وفي أحد نعوا إلى امرأة من بني دينار أباها وزوجها وأخاها ، وكلما نعوا إليها واحدا تسترجع ثم تقول : ما فعل رسول الله ؟

قالوا :هو بخير يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين .

قالت : أرونيه حتى أنظر إليه .

[1] - المستدرك ٣ / ٢٩٥

فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل ، أي هينة صغيرة .

واستقبلته أم سعد بن معاذ ، فعزاها في ابنها عمرو بن معاذ ، فقالت : أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت مصيبتي ، أي رأيتها صغيرة هينة .

فقال لها : يا أم سعد ، أبشري ، وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعا ، وقد شفعوا في أهلهم جميعا .

قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا ؟

ثم قالت يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا .

قال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا.[1]

حديث القرآن عنه

ما من أحد من الناس مؤمناً أو كافراً أو منافقاً أو ملحداً إلا وتكلم القرآن الكريم عنه في سياق ذكره للحزب الذي ينتمي إليه فالقرآن الكريم إذا تحدث عن المؤمنين أو تحدث عن الأنصار أو المجاهدين أو السابقين الأولين فهو بالضرورة يتحدث عن قتادة باعتباره واحداً من هؤلاء .

ولكن القرآن الكريم خص قتادة وجماعة معه بحديث مليء بالعبر و الدروس في قوله تعالى في سورة النساء : **﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ، وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً، وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيمًا، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَ كَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا، هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا، وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيمًا ، وَمَنْ يَكْسِبْ**

[1] - إمتاع الأسماع ، البداية والنهاية / ٣

إثماً فإنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَ كَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيماً، وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْماً مُبِينًا، وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .[1]

والقصة التاليه تروي في أسباب نزول هذه الآيات النيرات .

أ ما أبطالها فيمكن تصنيفهم على الوجه التالي

حزب المؤمنين

– قتادة بن النعمان

– رفاعة بن زيد : عم قتادة : الذي سرق منه طعامه وسلاحه .

– لبيد بن سهل :الذي اتهم ظلما بأنه هو السارق .

– المنافقون .

– بنو أبيرق: بشر ، وبشير ،ومبشر .

وكان بشر أشدهم نفاقا ، فكان ينظم الشعر في هجاء المسلمين ، ثم يذيعه بين الناس وهو ينسبه إلى رجال من الأعراب من خارج المدينة ، ويقول : قال فلان ثم يردد ما افتراه هو بنفسه .

رجل لا يعلم أمره .

–أسيد بن عروة : وكان رجلا فصيحا ، حلو المنطق ظريفا ، وكان يدافع بني أبيرق أمام النبي ﷺ فلما كشف الله أمرهم أصبح الناس ينظرون إليه في ريبة.

أما القصة فهي نموذج للأدب الرفيع الذي نوهنا في أكثر من موضع بأنه الجدير بأن تتخذ منه مناهجنا نصوصها.

يقول قتادة رضي الله عنه :

[1] – النساء / ١٠٥ – ١١٣

كان أهل بيت منا ، يقال لهم بنو أبيرق ، بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلا منافقا يقول الشعر ،يهجو به أصحاب النبي ﷺ ،ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان :كذا وكذا ،فإذا سمع أصحاب النبي ﷺ ذلك الشعر قالوا :والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث ، وقالوا ابن الأبيرق قالها ، وكان بنو الأبيرق أهل فاقة في الجاهلية والإسلام .

وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ،وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ،وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير .

وقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملا من الدرمك ، فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف ، فعدي عليه من تحت البيت،فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح .

فلما أصبح أتاني عمي رفاعة ، فقال : يا ابن أخي ، إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا ، فذهب بطعامنا وسلاحنا .

قال قتادة :فتحسسنا في الدار وسألنا ، فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق في المكان،واستوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم،وكان بنو أبيرق قد قالوا — ونحن نسأل في الدار — ما نرى صاحبكم (الذي سرق منكم) إلا لبيد بن سهل ، رجل منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق ؟ والله ليخالطنكم هذا السيف ، أو لتبينن هذه السرقة،قالوا إليك عنا أيها الرجل ، فما أنت بصاحبها (أي نحن نعلم أنك لا تسرق،يغيرون قولهم).

فسألنا في الدار حتى لم نشك في أنهم أصحابها ، يعني لم نشك في أن بني أبيرق هم الذين سرقوا ،فقال لي عمي : يا ابن أخي ، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك .

قال قتادة : فأتيت النبي ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء ، عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربته ، وأخذوا طعامه وسلاحه ، فليردوا علينا سلاحنا، وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه .

فقال النبي ﷺ : سآمر في ذلك .

فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسيد بن عروة ،فكلموه في ذلك،فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار ،فقالوا : يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت .

قال قتادة : فأتيت النبي ﷺ فكلمته فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة من غير ثبت ولا بينة .

قال : فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض عيالي و لم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة ، فقال : يا ابن أخي ماذا صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي النبي ﷺ فقال : الله المستعان ، فلم نلبث أن نزل القرآن **﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ﴾** يعني بني أبيرق ، واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما ، أي مما قلت لقتادة ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما : أي لو استغفروا لغفر الله لهم، ثم قال للبيد:ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلاّ أنفسهم وما يضرونك من شئ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما لاخير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما .

قال قتادة : فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة ، فلما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخا قد عمى في الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه

مد خولا ، فلما أتيته بالسلاح ، قال يا ابن أخي ، هي في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحا .

فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل عند سلافة بنت سعد بن أمية ، وكانت من أشد الناس على المسلمين ، فأنزل الله فيه ﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُسْلِمِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ، إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ [1]

قال قتادة : فلما نزل على سلافة هجاها حسان بن ثابت من شعره ، فأخذت سلافة رحل بشير فوضعته على رأسها فخرجت به فرمته بالأبطح (يعني في الصحراء) ثم قالت : أهديت لي شعر حسان ، ما كنت تأتيني بخير .

وفي بعض روايات الحديث أن بني الأبيرق لما عرفوا أن التهمة لصقت بهم أخذوا الدروع والسلاح فوضعوها في بيت لبيد أوفي بيت رجل يهودي ، ثم ذهبوا يبرؤون أنفسهم ويعرّفون بمكان السلاح متهمين من وضعوه في داره ،من أجل ذلك أنكر النبي ﷺ على قتادة اتهامه إياهم،فقال له الله تعالى : ﴿ **ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما** ﴾ .

ثم يعيب الله على هؤلاء المنافقين أنهم يتآمرون بعيدا عن أعين الناس ولكنهم تحت عين الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا** ﴾ ثم يخبر أن جدال النبي ﷺ عنهم إذا كان سيدفع عنهم التهمة في الدنيا فإنه لا يمكن أن يدفع عنهم عذاب الله يوم القيامة ﴿ **هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا** ﴾ .

[1] - النساء / ١١٥ ، ١١٦

ثم أرسى النبي ﷺ قاعدة تدل المسلمين على فضيلة الـــورع في التقــاضي ، فيقول : ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحـن بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة مـــن النـــار فليحملها أو ليذرها .

وقد كان النبي ﷺ معصوما بعصمة الله عز وجل له ، فإذا ألحن أحد بحجتـــه وكاد يقضي له بغير الحق مثل بني الأبيرق فإن الوحي يصحح له فلا يقضي إلا بالحق ولن يستطيع أحد أن يضله ، كما قال تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليـــك ورحمتـــه لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونـــك مـــن شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾ أما غير النبي ﷺ فلا يتمتع بهذه العصمة ، وعليه أن يقضى بما يملـك الخصمان من بينات ، أما الحق فلن يتحقق إلا إذا أعطاه الإنسان من نفسه بـــوازع من دينه حتى يكف عن نفسه غضب المولى عز وجل في الدنيا ويتقي بوجهه ســـوء العذاب يوم القيامة .[1]

نور الإيمان

الإيمان نفسه نور يخرج الناس به من ظلمات الضلال والغواية بولايتهم لله عـــز وجل ﴿ **اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِيـــنَ كَفَـــرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُـــمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .[2]

و الرسول ﷺ نور ومصدر للنور يقبس منه من هداهم الله عـــــز وجـــل إلى اتباعه ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسِ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِين ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَـــنِ**

[1] – تفسير الطبري ٢ / ٥١١٦

[2] – البقرة / ٢٥٧

اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.[1]

وفي سورة الأحزاب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾.[2]

فإذا هدى الله العبد إلى الإسلام فإن نور الإسلام و الإيمان يملأ قلبه ولا يكون هذا النور إلا في قلب المؤمن كما روى عن النبي ﷺ أنه قال :القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مصباح يزهر فذلك قلب المؤمن

وقلب أغلف مربوط على غلافه وذلك قلب الكافر ، وقلب أسود منكوس و ذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطهور ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح و الصديد فأي المدتين غلبت عليه كان لها .

وقد يرى لهذا النور الإيماني مظهر خارجي .

رآه موسى عليه السلام حين آنس من جانب الطور نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى .[3]

فاستقبلته هداية الله عز وجل وأعطته كفلا من ذلك النور يتحدى به طاغوت عصره فرعون : واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء .

ورآه الطفيل الدوسي حين طلب من الله آية فجعل الله له نورا بين عينيه ، ثم جعله في عصاه آية على الهداية ، ومظهرا للنور الذي يملأ قلبه .[4]

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[1]

---

[1] – المائدة / ١٥ ، ١٦

[2] – الأحزاب ٤٦ ، ٤٧

[3] – طه / ١٠

[4] – شذرات الذهب ١٠ / ٣٤

ورآه أسيد بن حضير وعباد بن بشر عندما خرجا من مجلسهما مع النبي ﷺ في ليلة ظلماء ، فجعل الله لهما نورا يهديهما الطريق حتى إذا تفرقا ذهب مع كل منهما نور حتى أوصله إلى أهله .[2]

ولقتادة بن النعمان قصة مع النور لا يفتأ بريقها ينشر وهجه فيضيء لمن يلتمسون الأسوة الحسنة .

بلغ شعاع النور إلى ربوع يثرب فتلقفه قتادة فأخرجه الله عز وجل من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام .

وتواصلت مسيرته مع النور فارسا مجاهدا ، وربانيا عابدا ، وصحابيا متبعا يحاول أن يكون هواه تبعا لما جاء به النبي ﷺ لأنه سمعه يقول : لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به .

اختلف قتادة مع بعض القرشيين حتى غضب فوقع بهم في الكلام وكأنه نال منهم ، فقال له النبي ﷺ :يا قتادة لا تسبن قريشا فإنك لعلك أن ترى منهم رجالا يزدرى عملك مع أعمالهم ، وفعلك مع أفعالهم ، وتغبطهم إذا رأيتهم،
لولا أن تطغى قريش لأخبرتهم بالذي لهم عند الله .[3]

ينصح النبي صلى الله ﷺ قتادة ، فيمنعه من سب قريش ، ويذكر له السبب ، فلعله يجد من القرشيين من هو أكمل إيمانا ، وفي أثناء ذلك يشير إلى صفاء قلب قتادة وسلامة نفسه ،فلن يحسد من يكون كذلك ، ولن يحقد عليه ، بل سيغبطه ، وسوف يفرح أنه رأى مؤمنا أفضل منه ، وسوف يرجو لنفسه أن يكون مثله ، وهذه الغبطة مشروعة ومرغّب فيها ، بل مأمور بها مثل قوله تعالى: وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وقوله تعالى : فاستبقوا الخيرات .

[1] – الزمر / ٢٢
[2] – مسند الإمام أحمد ٦ / ٣٨٤
[3] – الإصابة / ٧٠٧٠

ونواصل رحلة النور مع قتادة فنسمعه يروي حديثا يدخل برد الرضا على قلب المسلم الذي لم يؤت من متاع الدنيا ما أوتي غيره (إذا أحب الله العبد حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء).[1]

فالماء أساس الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ولكنه قد يكون ضارا بالإنسان بعض الوقت بالنسبة لبعض المرضى ، فتجد الطبيب يحذر أهله من أن يسقوه الماء ، وتراهم يقظين من حوله حتى لا يغافلهم ويشرب ، إنه راغب أشد الرغبة في شربة ماء ، وأهله يأبون عليه الماء كل الإباء ، وقد يغضب عليهم أو يظن بهم السوء ، ولكن حرصهم عليه ، وشديد أملهم في شفائه هو ما يدعوهم إلى ذلك.

ومن المسلمين من يحبهم الله عز وجل ، وهو بعلمه القديم يعلم أن أحدهم إذا بسط له في الرزق أسرف على نفسه وقارب المعاصي ، فيصرف الله عنه هذا المتاع استبقاء لإيمانه ، وربما يظن العبد أنه لو كان عنده من متاع الدنيا أكثر مما يملك لربما يكون خيرا له ، فحرص الله تعالى عليه يمنع عنه ما يظنه خيرا في حين أن الخير في إرادة الله تعالى وحكمته البالغة . ورووا أن قتادة بن النعمان أول من دخل المدينة بسورة مريم .[2]وروى أبو سعيد الخدري أن قتادة كان يقرأ سورة الإخلاص في كل صلاة ، وكأنما يراها قليلة ، فسأله النبي ﷺ عن سبب مداومته على تلاوتها في الصلاة

فقال قتادة : لأنه يحبها ،فقال له : ما ظنك بسورة تعدل ثلث القرآن.

وكانت مع قتادة راية بني ظفر في فتح مكة .

أما مظهر النور مع قتادة فقد أخرجه ابن عساكر والهيثمي عن قتادة .

قال قتادة : خرجت ليلة من الليالي مظلمة ، فقلت :لو أتيت رسول الله ﷺ وشهدت معه الصلاة ، وآنسته بنفسي ففعلت ،فلما خرج النبي ﷺ لصلاة العشاء

[1] - أسد الغابة ٤ / ١٩٦

[2] - المستدرك ٣ / ٢٩٥

الآخرة ،فدخلت المسجد ، فبرقت برقة ، فرآني رسول الله ﷺ فقال : يا قتادة ما أهاج ؟ ما السرى ؟

فقلت يا رسول الله ، علمت أن شاهد الصلاة الليلة قليل فأحببت أن أشهدها وأردت — بأبي أنت وأمي- أن أونسك .

قال :فإذا صليت فاثبت حتى أمر بك ، فلما انصرف أعطاني عرجونا ، وقال :خذ هذا فسيضيء لك أمامك عشرا وخلفك عشرا ، وإن الشيطان قد خلفك في أهلك،فاذهب بهذا العرجون ، فأمسك به حتى تأتي بيتك ، فخذه من زاوية البيت،فاضربه بالعرجون قبل أن تكلم أحدا .

قال قتادة : فخرجت من المسجد ، فأضاء العرجون مثل الشمعة نورا ، فاستضأت به ، فأتيت أهلي فوجدتهم قد رقدوا ، فنظرت في الزاوية فإذا فيها قنفذ ، فلم أزل أضربه بالعرجون حتى خرج .[1]

توفى قتادة سنة ثلاث وعشرين بالمدينة ، وهو ابن خمس وستين سنة ، وصلى عليه عمر بن الخطاب ، ونزل في قبره أخوه لأمه أبو سعيد الخدري .[2]

[1] مختصر تاريخ بت غساكر ، ومجمع الزوائد ٢ / ٣١٨

[2] – أسد الغابة ٤ / ١٩٦

أبو زيد الأنصاري

اسمه قيس بن السكن بن قيس بن زاعوراء من بني عدي بن النجار الخزرجي [1]

غلبت عليه كنيته أبو زيد [2]

وأضفى عليه الوقار لقبه ... القارىء

يفخر قومه بنو النجار بأنه أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن كله في صدورهم على عهد النبي ﷺ وهم : زيد بن ثابت ، و معاذ بن جبل ، و أبي بن كعب ، و أبو زيد .

ويفخر المهاجرون بأن منهم جماعة جمعوه على عهد النبي ﷺ منهم : عثمان بن عفان ، و علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وسالم مولى أبي حذيفة .[3]

جيل القرآن

لقد كان هذا الجيل كله يحفظ القرآن عملا به ،والتزاما بأحكامه ، وتطبيقا لمبادئه ،والتماسا لمواضع الأسوة فيه ،و أمرا بالمعروف الذي أمر به ، ونهيا عن المنكر الذي نهى عنه ،وطلبا للهدى، به وحذرا من الضلال إذا بعدوا ، عنه كما قال لهم رسول الله ﷺ عنه (وهو كلام الله المبين ، وحبله المتين فيه خبر من قبلكم ، ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم ، من تمسك به رشد ومن بعد عنه ضل وغوى) .

وكان هذا الجيل الأسوة يرى القرآن أدبا، رفيعا وخلقا عظيما في رسول الله ﷺ الذي خلقه القرآن وهم يتخلقون بهذا الخلق الرفيع حتى ليبحثون عن مواضع

[1] - الإصابة ٨ / ١٩١

[2] - أسد الغابة ٤ / ٢١٦

[3] - الطبقات الكبرى ٣ /

أصابعه في القصعة فيضعون أصابعهم عندها ، ومواضع قضـاء حاجتـه فيقضـون حاجتهم عندها .

خرج ابن عمر حاجا فدخل في الخلاء ثم عاد وسأله أصحابـه فقـال لهـم صحبت النبي ﷺ في حجته فدخل الخلاء في هذا الموضع وقضى حاجته .

كانوا كلهم علماء فقهاء بما تعملوه وفقهوه عن النبي ﷺ ولكنهم لم يكونـوا جميعا يحفظون كل القرآن الكريم لأنه كان يتزل على فـترات منجمـا وكـانت أدوارهم الكبيرة في تأسيس الدولة وحمايتها لا تترك الفراغ الكـافي لحفـظ جميـع الآيات المترلة .

هذا بالإضافة إلى قول بعضهم : كنا نحفظ الآيات العشر من القرآن الكـريم فلا نجاوزها حتى نعمل بها فقد فهم هؤلاء الرجال رضي الله عنهم أن آيات القـرآن الكريم هي خطة عمل وليست مجرد كلمات ترددها الألسنة وتتغنى بها الحناجر .

فإذا حدث وحفظ أحدهم جميع آيات القرآن الكريم فهذا يعني أنه فقه ما فيها وعمل بما ترشد إليه .

وحافظ القرآن الذي هذا شأنه هو الذي يتاجر مع ربه عز وجل التجارة الـتي لن تبور كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُون، كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقْناهم سِرًا وَعَلانيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [1]

وحافظ القرآن الذي تمرس على تلاوته فأصبح ماهرا بـه مـع ملائكـة الله السفرة الكرام .

وقارئ القرآن الذي يتعتع فيه وهو عليه عسير له أجره مرتين .

[1] - فاطر / ٢٩ ، ٣٠

ومن حفظ القرآن وعمل به –بشرى النبي ﷺ – يلبس والداه يوم القيامة تاجا اسمه تاج الكرامة ويقال لهما :هذا الفضل العظيم بسبب حفظ ولدكما القرآن الكريم .

ويشفع من حفظ القرآن الكريم يوم القيامة في عدد من أهله كلهم وجبت له النار فيخرجهم الله عز وجل منها ويدخلهم الجنة بشفاعته .[1]

وكل حرف يتلوه قارئ القرآن يضيف إلى رصيده من الحسنات عشرا – يقول النبي ﷺ : لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف و ميم حرف .

ويقال لقارئ القرآن في الجنة اتل ورتل كما كنت ترتل في الدنيا وارق في درجات الجنة وينتهي مكانه في الدرجات العلا عند آخر آية يحفظها .

هذه الحلى التي حلى بها رسول الله ﷺ قارئ القرآن – إذا كان على شاكلة أصحابه الكرام من الحفظ والعمل – تعود للخصائص التي تمثلت في هذا القارئ فأصبح بها مسلما مؤمنا فقيها سليم القلب و النفس .

يقول الله تعالى: **﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾**.[2]

ويقول جل شأنه : **﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ .. ﴾** [3]

ويقول : **﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾** .[4] ويقول : **﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحًا**

---

[1] – علم الساعة باب الشفعاء

[2] – الإسراء / ٨٢

[3] – الرعد / ١٩

[4] – محمد ٢٤

أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .[1] ﴾

ويقول ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .[2]

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.[3]

هذا بالإضافة إلى الآيات الكريمة التي تبين أن في القرآن حياة للقلوب ، ونورا للبصائر مثل : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]

وقوله ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .[5]

فمن كان يجمع القرآن من جيل الصحابة يكون جامعا لأطراف العلم ، وعالما بالحلال والحرام وملما بقصص القرآن وأخباره وآدابه وعظاته وعبره ، وعاملا بما يقرأ ويتلو ويسمع ويتعلم ، ومتابعا لأقوال النبي ﷺ وفقيها بتفسير المشكل وتأويل الغامض وتفصيل المجمل مما ورد في القرآن الكريم .

[1] – الأنعام ١٤٥
[2] – الأنعام / ١١٤
[3] – الأنعام / ٩٢
[4] – الأنعام / ١٣٢
[5] – المائدة / ١٥ ، ١٦

يقول أبو زيد : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ، فخطبنا إلى الظهر ، ثم نـزل فصلى الظهر ، ثم خطبنا إلى العصر، فنزل فصلى العصـــر ، ثم صعـــد فخطبنـــا إلى المغرب فحدثنا بما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا . صححه الذهبي ، وقـــال الحـــاكم صحيح الإسناد .[1]

ونحن في حاجة إلى نعنى بحفظ القرآن ودرسه بعد أن ابتعد اللسان عن اللغـــة العربية التي نزل بها القرآن الكريم وغلبت العجمة على بلاد المسلمين وأصبح كثــير منهم يفهمك إذا حدثته بالأوروبية و الهندية و الآسيوية ولا يفهمك أو يصعب عليه الفهم إذا حدثته باللغة العربية ، لغة آبائه وأجداده ، ولغة القرآن الكريم الذي يجب عليه أن يقرأ ما تيسر منه ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ . . [2] ﴾

إن القلب ليتفطر من الأسى حين يرى كثيرا من دعاة المسلمين لا يحســـنون قراءة الآية من القرآن الكريم لعدم حفظها أو لأنه لا يحسن قراءة القرآن الكريم مـــن الورقة التي في يده وهذه كارثة أخرى أن تجد أكثرهم لا يؤدون خطبة الجمعـــة إلا من الورقة التي في يده ، وبلغة ضاع منها النحو وهو ملح الكلام ، واختلطت مخارج الحروف، أو غيرت الحروف مخارجها، مثل إخراج القاف من مخرج الغين ، أو الغين من مخرج القاف ، وإخراج الثاء من مخرج السين ، والذال من مخرج الزاي والظـــاء من مخرج الضاد أحيانا ، وأحيانا أخرى تخرج الضاد من مخرج الظاء وأحيانا تخـــرج الضاد من مخرج الدال . إن في حفظ القرآن الكريم تقويما للسان من العوج ، ووضعا للحروف في مخارجها وعدة للداعية ، وشحذا للعزائم ، وعملا بأحكام الإسلام .

أسلم أبو زيد قيس بن السكن رضي الله عنه أول ما عرف الإسلام بيـــثرب ، وكان الخزرج وخاصة بني النجار يدخلون في الإسلام أفواجا فرحين به وبرسول الله ﷺ لما تربطهم به من صلة قرابة فهم أخوال جده عبد المطلب وأخواله بالتبعية حـــتى

[1] – الطبقات الكبرى ٣ /

[2] – المزمل / جزء من آية ٢٠

إن أبا طالب وهو على فراش الموت أوصاه إن اشتد عليه أهل مكة بعـــد موتـــه أن يذهب إلى أخواله بني النجار فسوف يجد الناصر المؤازر .[1]

وعرف أن إيمانه سيفرض عليه التزامات ويلقي عليه تبعات وأنه مطالب بـــأن يدافع عن دينه وعقيدته وأن يضحي لها بماله ونفسه وجهده ووقته وهـــذه العقيـــدة مستهدفة الآن كما كانت مستهدفة من قبل بل أن ما يجابهها اليوم أشد شراسة لمـــا يتفوق به العدو من الوسائل الفنية الحديثة بالإضافة إلى ضعف المسلمين في العقيـــدة والقوة و الروحية و المادية .

إن الجهاد في سبيل الله فريضة فرضها واقع المسلمين في عهد الرســـالة الأول كما يفرضها واقع المسلمين في كل عصر إذ أن أعداءهم يتربصون بها ويـــهدفون إلى استئصالهم ولن تتوقف المعركة إلا في حالتين ، إما أن ينتصر الإسلام وإما أن يســـود الباطل والأمران غير ميسورين في الحاضر على الأقل فالجهاد ماض والمؤمن في ربـــاط ومن ثم نقدم في الصفحات التالية بحثا عن هذه الفريضة التي هي ذروة الإسلام كمـــا قال الرسول ﷺ : (وذروة سنامه الجهاد)

الجهاد أعلى سنام الإسلام

تعريف الجهاد:

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان في أصول الدعوة هو بذل الإنسان جـــهده وفي الاصطلاح الشرعي : بذل المسلم طاقته وجهده في نصـــرة الإســـلام ابتغـــاء مرضاة الله .

وقيد الجهاد في الإسلام بأنه في سبيل الله ليدل على هذا المعـــنى الضـــروري لتحقق الجهاد الشرعي وبهذا جاءت الآيات القرآنية معلنة أن جهاد المسلمين ومنـــه القتال إنما هو جهاد في سبيل الله بخلاف الكافرين فإن جهادهم وقتالهم في غير سبيل الله أي في سبيل الشيطان وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِيـــنَ**

[1] – البداية والنهاية ٣ / ٢٤٥

كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ . [1]

ويعرف الجهاد بالسلاح بأنه القتال لتكون كلمة الله هي العليا .

وقد جاء في الحديث الشريف : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل بشجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله فقال النبي ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله لأن المقصود بكلمة الله الإسلام وجعلها هي العليا أي هي النافذة الظاهرة ولاشك أن إظهار دين الله يرضى الله تعالى

حكم الجهاد وضرورته

إذ تبوء الجهاد تلك المكانة الرفيعة في الإسلام عظمت الوصية به وأمر الله تعالى بأخذ العدة اللازمة له .

قال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ .)[2]

فكل ما به قوة وحاجة في القتال وهو في مقدور المسلمين وجب تحصيله وإعداده وهذا يختلف باختلاف الأزمان و الأحوال ، وفي زماننا هذا فإن من القوة الواجب إعدادها تعلم و إتقان مختلف العلوم والفنون و الصناعات اللازمة لإعداد القتال وتعلم هذه الأمور من فروض الكفاية اللازمة لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب والمستحب لكل مسلم تعلم ما يستطيعه من أمور القتال ، كالرمي والطعن واستعمال السلاح ، ووسائل مقاومة الخصوم ، ويعلم ذلك للآخرين ابتغاء وجه الله تعالى .

قال ابن تيميه : وتعلم هذه الصناعة _ أي الحروب وآلات القتال _ هو من الأعمال الصالحة لمن يبتغي بذلك وجه الله تعالى ، فمن علم غيره ذلك كان شريكه في كل جهاد جاهد به لا ينقص أحدهما من الأجر شيئا .

[1] – النساء ٧٦

[2] – الأنفال ٠/ ٦٠

وفي الحديث عن النبي ﷺ : من تعلم منَ الرمي شيئا ثم نسيه فليس منا .

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يوصي المسلمين أن يعلموا أبنـــاء المســـلمين السباحة والرمي ، وأن يثبوا على ظهور الخيول وثبا .

والجهاد ضروري لبقاء المسلمين أمة قوية مرهوبة الجانب بعيدة عن أطمـــاع الطامعين ، والحاقدين من الكافرين والمنافقين .

كما أن الجهاد من أقوى الأدلة على إيمان المسلم ومبادرته إلى ما يحبه الله تعالى وإيثار مرضاته وما عنده ، ومن ثم وبخ الله تعالى القاعدين والمتقاعسين .

قال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَـــبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾** .[1]

ولأهمية الجهاد قال العلماء : المقام في الثغور أفضل من المجاورة في المســـاجد الثلاث : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى ، وتعليل ذلـــك أن الرباط من جنس الجهاد ، والمجاورة غايتها أن تكون من جنس الحج ، والجهاد أفضل من الحج ، كما قال تعالى : **﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْـــجِدِ الْحَـــرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لا يَسْتَوُونَ عِنْـــدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾** [2]

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بـــالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : جهاد في سبيله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال حج مبرور .

وترك الجهاد سبب للمذلة والهوان وضياع الديار وتسلط الكفرة على بـــلاد الإسلام وهذا من العذاب الذي توعد به الله تعالى تاركي الجهاد ، قال ربنا : **﴿ إِلَّـــا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُـــلِّ**

[1] – التوبة / ٣٨

[2] – التوبة ١٩

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.[1]

قال ابن العربي : في هذه الآية تهديد شديد ووعيد مؤكد في النفير و الخروج إلى الكفار لمقاتلتهم لتكون كلمة الله هي العليا .

آما نوع العذاب الذي هدد به الله تعالى من يتقاعسون عن الجهاد فقد قال ابن العربي : هو في الدنيا باستيلاء العدو على ما يستولي عليه من أرضهم وفي الآخرة عذاب جهنم .

ووقائع التاريخ القديمة والحديثة تؤكد ما ذكره ابن العربي فما أصاب المسلمين من ذل و تسلط الكفرة عليهم إلا بتركهم الجهاد المطلوب منهم .

أما حكم الجهاد كما قرره الفقهاء فهو كما يلي الجهاد بالنفس بمقاتلة الأعداء من فروض الكفاية في الأحوال الاعتيادية إذا حصلت به الكفاية .يكون الجهاد فرض عين إذا احتل الكفرة بلدا من بلاد الإسلام ، أو إذا استنفر الإمام المسلمين .قال ابن العربي في أحكام القرآن : إذا كان النفير عاما لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى كان النفير عاما ووجب الخروج خفافا وثقالا وركبانا ورجالا ، عبيدا وأحرارا . من كان له أب يخرج من غير أمره حتى يظهر الله دينه وتحمى البيضة ، وتحفظ الحوزة ، ويخزي الله العدو ، ويستنقذ الأسرى ، لا خلاف في هذا.

أنواع الجهاد

من أنواع الجهاد :

- الجهاد باللسان ببيان شرائع الإسلام أو دحض الأباطيل المفتراة عليه ،والجهر بقول كلمة العدل عند السلطان الجائر ، قال رسول الله ﷺ : إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر .
- الجهاد بالمال ، وذلك بمغالبة شح الأنفس ، وإنفاق المال في وجوه البر ، لاسيما على المجاهدين بشراء العتاد والسلاح والأرزاق لهم .

[1] - التوبة / ٣٩

– الجهاد بالنفس بمقاتلة أعداء الله ، وهو الذي يراد غالبا إذا أطلقت كلمة الجهاد، كما أن الجهاد بالمال يقترن كثيرا بالجهاد بالنفس ،لأن الجهاد بالنفس يستلزم أموالا كثيرة.

قال تعالى ﴿ لايَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .[1]

وقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.[2]

بين الدفاع والهجوم

في محاولة – طيبة المقصد – لنفي شبهة العدوان عن الحروب الإسلامية التي هدفها الجهاد في سبيل الله ،قال بعض الباحثين بحسن نية إن هذه الحروب كانت دفاعية،وهذا يعني أن المجاهدين من السلف الصالح لم يبدءوا أعداءهم بالهجوم في أي معركة بل كانوا يتربصون بأعدائهم حتى يهاجمهم العدو ، ويترتب على ذلك أنه لا يجوز لدولة مسلمة أن تهاجم دولة كافرة إلا إذا هوجمت من قبلها ،وهذا قول –كما نرى – ليس سديدا ، وينقصه التحقيق العلمي ،ولا تدل عليه دلائل الشريعة،وذلك لأن للقتال في الإسلام أسبابا منها :

[1] – النساء / ٩٥

[2] – الصف / ١٠ ، ١١ ؟ ١٢

- رد العدوان وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [1] .
- القتال لنصرة ضعفاء المسلمين الذين يعرضون لظلم الكفرة : قال الله تعالى :

﴿وَمَالَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا [2] ﴾

- أن يبدأ المسلمون قتال الكفرة إذا رفضوا الإسلام ومنعوا المسلمين من الوصول إلى السلطة وإقامة شرع الله وتطبيقه في الأرض .

وهذا النوع الأخير هو مصدر الجدل حيث يخشى البعض أن يكون مثل هذا الجهاد عدوان والله ينهى عن العدوان والحقيقة إن السلف الصالح وعلماء الأمة قد فهموا من القرآن أن هذا النوع من الجهاد يدرأ شرورا كثيرة أقلها الفتنة قال تعالى :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله . [3] ﴾

والفتنة معناها الكفر والشرك .

قال الإمام أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فرض قتال الكفار حتى يتركوا الكفر

قال ابن عباس و قتادة أما الدين فهو الانقياد بالطاعة والدين الشرعي هو الانقياد لله عز وجل والاستسلام له .

ودين الله هو الإسلام قوله تعالى : إن الدين عند الله الإسلام فقول الجصاص حتى يتركوا الكفر : أي كفرهم المتعلق بتشريع الأحكام لأن التشريع من حق الله

[1] - البقرة / ١٩٠
[2] - النساء / ٧٥
[3] - البقرة / ١٩٣

وحده فمن نازعه ذلك فقد كفر و أشرك قال تعالى :﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ .[1] ﴾

ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [2] ﴾.

قال الشافعي– كما ورد في مختصر المازني– الصغار من تؤخذ منهم الجزية وتجري عليهم أحكام الإسلام فهذا صريح في أن قتال المسلمين إنما هو لإظهار دين الله بتطبيق شرائعه بعد أن يتولى المسلمون الحكم والسلطان ، وليس المقصود قتل غير المسلمين أو إكراههم على الإسلام لأنه لو كان هذا هو المقصود لما شرعت الجزية ولما أقر الكافر على كفره في دار الإسلام .

والسنة النبوية حافلة بما يؤكد هذا الرأي منها ما رواه مسلم ونقله ابن القيم في زاد المعاد ما يأمر فيها النبي ﷺ أمراء الجند عند توجههم إلى المشركين

أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا فإلى الجزية أي إلى الخضوع إلى سلطان الدولة الإسلامية فإن أبوا قاتلوهم حتى يخضعوهم لقهر سلطان المسلمين .

والحقيقة أن بدء المسلمين بالقتال إذا رفضوا الإسلام أو الجزية إنما هو لمصلحة عموم المشركين الذين يخضعون لسلطان الكفر لأن المسلمين يريدون لهذا القتال رفع هذا الحكم الكافر عنهم وإزالة شرائعه الباطلة ورفع الحواجز عن عموم الناس لرؤية الإسلام وشرائعه فمن شاء آمن و من شاء بقى على كفره بشرط الولاء للدولة الإسلامية وهذا كله من مصلحة المشركين الدنيوية والأخروية .

أما الدنيوية فتظهر في تمتعهم بعدل الإسلام والمحافظة على أموالهم وحقوقهم، وأما الأخروية فبتهيئة سبل معرفتهم للإسلام ورؤيتهم لسماحة مبادئه واحتمال

---

[1] – الشورى / ٢١

[2] – التوبة / ٢٩

دخولهم فيه لاعن جبر وإكراه ولكن عن رضا واختيار ، وفي هذا سعادتهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة .

إن المسلم لا ينفك عن الجهاد في سبيل الله أبدا ، فهو في جهاد دائم ، يجاهد نفسه فيحملها على الطاعة وعلى بذل النفس والمال في سبيل مرضاة الله تعالى .

ويجاهد بلسانه وقلمه ليبين معاني الإسلام ويرد على افتراءات المغرضين والمبطلين .

ويجاهد بسلاحه لنصرة دينه وإقامة شرائعه في الأرض .

ويجاهد في جميع أحواله : في الرخاء والشدة ، في اليسر والعسر ، في المنشط والمكره في الغنى والفقر ، في القوة والضعف .

بهذا فهم المفسرون قوله تعالى :انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

يقول ابن تيميه : الأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر بل و لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه ، وتعليل ذلك أن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، كما أنه يشتمل على جميع أنواع العبادات الظاهرة والباطنة مثل : محبة الله والإخلاص له والصبر والزهد ، وإن القائم به بين إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة والجنة .[1]

بين بدر وجسر أبي عبيد

شهد قيس بن السكن أبو زيد بدرا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ [2]، مدافعا عن الإسلام ومثبتا لأركانه ، ومجاهدا يتلمس طريقه إلى الجنة بصبر جميل وعزيمة لا تلين .

وفي أيام الصديق كانت حروب الردة جهادا في سبيل الله ، وإعلاء لكلمته ، ثم كان من تداعياتها حدوث اشتباكات بين المسلمين والفرس شارك فيها المثنى بن

[1] – استفدنا كثيرا في هذا الفصل من كتاب أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان .

[2] أسد الغابة ٤ / ٢١٦

حارثة الشيباني وخالد بن الوليد ، كما أحدثت توترات بين المسلمين والروم شارك فيها أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة .

ثم عندما تداعت الروم كلها على المسلمين أرسل الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد يستحثه لموازرة المجاهدين في الشام ، فخرج بشطر الجيش ، وأمّر المثنى على من بقي في العراق .

أقام المثنى بالحيرة وعيونه منبثة من حول الفرس تواليه بأخبار العدو وتحركاته،وقد استقر أمر الفرس — بعد اضطراب — على تولية شهر براز بن أردشير، فوجه إلى المثنى جيشا عظيما يقوده هرمز في عشرة آلاف مقاتل ، فخرج المثنى للقائه وجعل على مجنبتيه أخاه المعنّ وأخاه مسعودا ، فأقام ببابل حتى أقبل هرمز ومعه رسالة من كسرى إلى المثنى جاء فيها : إني قد بعثت إليكم جندا من وحش أهل فارس وهم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلاّ بهم .

فكتب إليه المثنى : إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وعند الناس الملوك ، وأما الذي يدخلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير .

جزع الفرس من كتاب المثنى ، ولاموا كسري ، وقالوا له : جرأت علينا عدونا بالذي كتبت إليهم ، فإذا كاتبت أحدا فاستشر .[1]

والتقى المثنى بهرمز في بابل فاقتتلوا قتالا شديدا ، وكان فيل الفرس يفرّق المسلمين ، فخرج له المثنى ومعه ناس فقتلوه ، وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون إلى المدائن يقتلونهم حتى هزموهم بحمد الله تعالى .

[1] – البداية والنهاية ٧ / ٣٢٧

ومات كسرى بعد هزيمة هرمز ، فاجتمعت الفرس على ابنته دخت زنان فلم ينفذ لها أمر ، فنحيت ، وملك سابور وجعل وزيره الفرخزادين ، فطلب منه أن يزوجه آزر ميدخت بنت كسرى ، فأجابه ولكنها غضبت ، وقالت لسابور : يا ابن عم ، أتزوجني عبدي ؟!

فقال لها : استحي من هذا الكلام ولا تعيديه عليّ فإنه زوجك .

تظاهرت بالقبول ، واتفقت مع أحد فتّاك الفرس ، فاغتال الوزير في ليلة العرس ، ثم ثاروا على سابور ، فقتلوه وملكت أزر ميدخت .

سار المثنى إلى المدينة بخبر الفرس وليستأذن الصديق في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين ،فإنهم أنشط للقتال ليكفروا عن خطيئتهم ، وكان أبو بكر في مرضه الأخير ، فاستدعى عمر ، وقال له : اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، وإني لأرجو أن أموت في يومي هذا ، فإذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ، ووصية ربكم ، واردد أهل العراق إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره ، وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم .

فلما أصبح عمر من الليلة التي مات فيها الصديق ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر ، فلم يقم أحد ، ثم ندب الناس مرة أخرى وهم يبايعونه بالخلافة فلم يستجب أحد ، ثم ندبهم للمرة الثالثة فكان أول من استجاب أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، ثم تلاه سعد بن عبيد القارئ ، وسليط بن قيس ، وهما ممن شهد بدرا ، وكانت جهة الفرس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها إليهم ، لشدة سلطان الفرس وشوكتهم وقهرهم الأمم الأخرى .

وتكلم المثنى فقال : أيها الناس ،لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد فتحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقي السواد ، وشاطرناهم أموالهم ، ونلنا منهم ، واجترأنا عليهم ، ولنا إن شاء الله ما بعدها .

ثم تكلم عمر فقال: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوي عليه أهله إلا بذلك أين الطراء المهاجرون عن وعد الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب بأن يورثكموها فإنه قال : ليظهره على الدين كله و الله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحون ؟

فأقبل المهاجرون والأنصار وكان معهم أبو زيد قيس بن السكن ثم أمر على الجميع أبو عبيد وطلب منه أن يستمع لمشورة أصحاب النبي ﷺ ويشركهم في الأمر وطلب منه أن لا يجتهد في التسرع حتى يتبين وفي التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب فإنه لا يصلحها إلا الرجل المكيث .

ثم أمر عمر المثنى أن يسبقه فيجمع الناس ويلحق بهم من حسنت توبتهم من أهل الردة في انتظار قدوم أبي عبيد ومن انتدب معه فوصل المثنى إلى الحيرة ووصل أبو عبيد بعده بشهر وقال عمر لأبي عبيد وهو يودعه : إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة و الجبرية تقدم على قوم تجرؤا على الشر فعملوه وتناسوا الخير فتجاهلوه فانظر كيف تكون ؟ واحرز لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتي من وجه يكرهه ،وإذا ضيعه كان بمضيعة.

وكان الفرس قد اضطربوا مرة أخرى بشأن من يحكمهم وفقئت عين الملكة وقتل حاميها الذي فتك بأعدائها من قبل ثم انتهى الأمر إلى بوران التي دعت رستم الذي مكن لها وشكت إليه تضعضع الفرس و إدبار أمرهم وعرضت عليه أن تملكه عشر سنين ، ثم يعود الملك إلى آل كسرى ، فقال لها : أما أنا فسامع مطيع غير طالب عوضا ولا ثوابا فقالت له : أغد علي غدا ففعل وكانت قد دعت مرازبة فارس وأخبرتهم وأمرتهم أن يسمعوا له ويطيعوا فدانت له فارس قبل قدوم أبي عبيد .

وكان رستم منجما حسن المعرفة بالحساب والحوادث ،وقد فهم من الحوادث أن أمر العرش إلى زوال ، وأسر الأمر إلى بعض جلسائه ، فقالوا له : ما حملك على هذا الأمر وأنت ترى ما ترى ، فقال : حب الشرف والطمع .

وقدم أبو عبيد ، فأرسل رستم إلى الدهاقين أن يثوروا بالمسلمين ، وبعث إلى كل إقليم من يثور به ،وعين قائدين من مهرة الفرس ليقود الجيش الذي أرسله لمصادمة المثنى فحذر المثنى وترك الحيرة ونزل (خفان) لئلا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه وأقام أبو عبيد أياما حتى يستريح رجاله فعجل جابان الفارسي إلى أرض النمارق، ومعه صاحبه مردا نشاه ، والتقى الجيشان فاقتتلا قتالا عنيفا فهزم الله الفرس وأسر المسلمون القائدين جابان و مردانشاه ، أما من أسر الأخير فحزم رأيه وقتله ، وأما جابان فقد خدع آسره ، وطلب منه أن يؤمنه على أن يفتدى نفسه منه بغلامين خفيفين في العمل ، فتركه فأسرع فارا ،ولكن بعض المسلمين أدركوه وأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه جابان قائد الفرس و أشاروا عليه بقتله فقال : إني أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين و المسلمون في التواد و التناصر كالجسد الواحد ما لزم بعضهم لزم كلهم . [1]

بعد النمارق انتصر المسلمون على الفرس في وقعة السقا طية بكسكر ثم في وقعة الجالينوس ولكن عاطفة أبي عبيد دعته إلى التنسرع في وقعة قس الناطق وتسمى المروحة و اشتهرت في التاريخ بجسر أبي عبيد وكانت امرأته قد رأت رؤيا وقصتها عليه فأولها بأنه سينال الشهادة ففقد حذره كأنما يتعجلها فأدركته ومعه كثير من جيشه ومن لم يقتل انهزم وخرج إلى البراري وبعضهم ذهب إلى عمر في المدينة فأشفق عليهم وعذرهم وقال لهم أنا فئتكم ولقي الشهادة في ذلك اليوم –يوم جسر أبو عبيد .. أبو زيد قيس بن السكن رضي الله عنه . [2]

ملاحظة

وهذه الملاحظة تتكون من شقين

الأول : يخلط الرواة بين قيس بن السكن وبين سعد بن عبيد لأن، كلا منهما لقبه أبو زيد الأنصاري، ولأن كلا منهما جمع القرآن على عهد النبي ﷺ ، ثم عقب أبو

[1] – البداية والنهاية ٧ / ٢٦٩

[2] – الإصابة ٨ / ١٩١

عمرو بن عبد البر على هذا الخلاف بأن الذين جمعوا القرآن وكنية كل واحد منهم أبو زيد ستة ،ويظهر الفرق بينهم في تاريخ وفاقم ، فسعد بن عبيد أبو زيد الأنصاري رضي الله عنه كان من المنهزمين يوم جسر أبي عبيد ومات شهيدا في القادسية مع سعد أبي وقاص ،وخصه سعد بالذكر وهو يكتب أخبار الموقعة للفاروق ،فقال له ومات فلان وفلان وسعد بن عبيد القارئ بينما استشهد قيس بن السكن رضي الله عنه في موقعة الجسر .

الثاني : يخلط بعض الرواة كذلك بين قيس بن السكن وبين أبي زيد عمرو بن أخطب وهو أحد الذين جمعوا القرآن كذلك يشترك معه في الكنية ويفرق بينهما أن عمرو بن أخطب لم يشهد بدرا وغزا مع النبي ﷺ غزوات ومسح النبي ﷺ على رأسه ودعا له بالجمال فبلغ مائة سنة ونيفا وما في رأسه ولحيته إلا نبذ من شعر أبيض . وهو جد المحدث عزرة بن ثابت .

عثمان بن مظعون

أبوه مظعون بن حبيب بن وهب من بني جمح [1]
أمه سخيلة بنت العنس قرشية من بني جمح كذلك
وكنيته أبو السائب
قال عنه بن عبد البر من سادة المهاجرين ، ومن أولياء الله المتقين الذين فازوا بوفاتهم في حياة نبيهم فصلى عليهم ، وكان أبو السائب أول من دفن بالبقيع [2]
أسلم أول الإسلام ، بعد ثلاثة عشر رجلا [3]

عن يزيد بن رومان : انطلق عثمان بن مظعون وأبو عبيدة ابن الجراح ، حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الإسلام ، وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا جميعا في ساعة واحدة ، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعوفيها[4].

و لم يكن إسلام عثمان بن مظعون ليغير الكثير من نفسه الرضية الصافية، ولا من فطرته النقية البيضاء ، وإنما ثبت فيه الإسلام فطرته حتى لا تزيغ بها الأهواء ولا تلوثها المآثم .

لقد كان عثمان بن قبل الإسلام — و لم يزل بعده — رجلا موفورا الكرامة بغير غرور ، يألف الناس ويألفه الناس من غير سقط ولا ضعة ، شجاعا لا يخضع لضيم ولكنه لا يرفع سيفه ولا عصاه لمظلمة ، له عاطفة جياشة ، ولكنه يحرص على أن يظل عقله الحكيم مسيطرا على هذه العاطفة فلا يعتبرها شطط .

[1] – أسد الغابة ٣ / ٥٩٨
[2] – الاستيعاب ٨ / ٦٣
[3] – الطبقات الكبرى ٣ / ٢٨٦
[4] – سير أعلام النبلاء ١ / ٢٨٦

أخرج ابن سعد عن عمر بن سعيد عن ابن سابط : قال عثمان بن مظعون ، لا أشرب شرابا يذهب عقلي ، ويضحك بي من هو أدنى مني ، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد [1]

وكان هذا القول من عثمان بن مظعون، وهو يتحدث عن أنه حرم الخمر على نفسه أيام الجاهلية التي كان حريصا فيها على أن يحافظ على عقله فلا يذهب ، ويحافظ على كرامته فلا يضحك منه هو أدنى منه ، وعلى أن لا يبرم عقدا لا يرضاه ، ولا يزوج بناته إلا من يريد ، وهل يكون المسلم إلا كذلك ؟

لقد كان عثمان قبل الإسلام — ولم يزل بعده - مسلما بالفطرة التي لازمته، ثم سابقا إلى الشهادة بعد سبقه إلى الشهادتين ومبايعة النبي ﷺ أيام الدعوة السرية وقبل دخول دار الأرقم .

مع المهاجرين

رغم الدعوة السرية فقد دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال و النساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به[2]

وكان النبي ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيا ، لأن الدعوة كانت لا تزال سرية فردية ، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل المدثر ، وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ذات فواصل رائعة أنيقة ، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق تشتمل على تحسين تزكية النفوس ، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا ، تصف الجنة و النار كأنهما رأى عين ، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك [3]
وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما ، ولعلها حسبت محمدا أحد أولئك الديانيين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن أبي الصلت ،

[1] - الطبقات الكبرى ٣/ ٢٨٦
[2] - ابن هشام ١ / ٢٤٥
[3] - الرحيق المختوم ٧٦

وقس بن ساعدة ، وعمرو بن نفيل وأشباههم إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصير دعوته [1]

مرت ثلاث سنين والدعوة لم تزل سرية و فردية ، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة و التعاون ، وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها ، ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بإعلان قومه و، مجابهة باطلهم ، ومهاجمة أصنامهم .

ثم نزلت سورة الشعراء فذكرت قصص جملة من الأنبياء في صراعهم مع أعدائهم حين جهروا لهم بدعوتهم ، وما تعرض له هؤلاء الأنبياء من صدود وأذى ، ثم كانت النتيجة أن صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلي ، وآثار هؤلاء الأقوام شاهدة على تاريخهم مع أنبيائهم يمر عليها العرب مصبحين أو بالليل ، ثم يمتن الله تعالى على عبده ﷺ بأنه آتاه السبع المثاني و القرآن العظيم ، وقبل أن تنتهي السورة يأمره بأن يصدع بالدعوة قائلا له ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عن الْمشْرِكِينَ** [2] ﴾

فبدأ بعشيرته الأقربين كما أمره الله تعالى فدعاهم وكانوا خمسة و أربعين رجلا ، وبدأ أبو لهب فقال : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئت به .

فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس . ثم دعاهم ثانية وقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو ، إني

[1] – فقه السيرة محمد الغزالي ٧٦

[2] – الشعراء ٢١٤

رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ،وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا واحد منهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوءة ، خذوا على يده قبل أن يأخذ غيركم .

وقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .[1]

وبعد أن استوثق النبي ﷺ من قيام عمه أبي طالب إلى نصرته ، صعد إلى جبل الصفا وأنذر قريشا ، فلم يجبه إلا أبو لهب قائلا : تبا لك سائر ذلك اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت سورة المسد .[2]

انفجرت مكة بمشاعر الغضب ، وماجت بالغرابة والاستنكار حين سمعت صوتا يجهر بتضليل المشركين وعبادة الأصنام ، كأنه صاعقة ، فرعدت وبرقت وزلزلت ثوابت المكيين ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، ويخشون أن تأتي على موروثاتها .

عرفت قريش أن نفي الألوهية عن غير الله ،وأن التصديق باليوم الآخر يعني الانقياد الكامل ، والتفويض المطلق ، فلا خيار لهم في أنفسهم وأموالهم ، ولا حق لهم أكثر من غيرهم ، ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم والقضاء على كبريائهم

على سائر العرب ، ومعنى ذلك _ أيضا _ أن لا يكون لهم الخيرة من أمرهم، فيجب أن يعدلوا عن مرضاة أنفسهم إلى مرضاة الله تعالى ، وأن يكفوا عن المظالم التي بينهم وبين بعضهم ، وعن الخطايا التي يتمرغون في حمأتها ليلهم ونهارهم ، مصبحهم وممساهم.

---

[1] – فقه السيرة ٧٧ ، ٧٨

[2] – البخاري ٢ / ٧٠٢ ، ومسلم ١ / ١١٤

حاولت قريش أن تثني أبا طالب عن نصرة ابن أخيه فلم تفلـــح ، فأشـــرعوا أسلحتهم،وإن بدت متدرجة إلا أنها تآزرت جميعا ضد الطليعة المؤمنة .

استخدموا أسلوب التجاهل ، وعدم الاكتراث .

واستخدموا أسلوب السخرية والاستهزاء .

وقاموا بإثارة الشبهات ، ومعارضة القرآن بالأساطير .

قال النضر بن الحارث : يا معشر قريش ، والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم لـه بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكـــم حديثـــا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتـــم : ساحر ،لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم شـاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون ، لا والله ما هـــو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يـــا معشـــر قريش ، انظروا في شأنكم ، فإنكم والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث رستم و إسفنديار ، فكـــان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقـــول : والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟[1]

ولجأ المشركون إلى مساومة النبي ﷺ على حل وسط ينتهون به إلى دين هـــو وسط بين الإسلام و الوثنية فأنزل الله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَـــافِرُونَ لا أَعْبُـــدُ مَـــا تَعْبُدُونَ [2]

[1] – تفهيم القرآن ٤/ ٨ ، ٩

[2] – ابن هشام ١/ ٣٦٢

ولما لم تجد هذه الأساليب في وقف المد الإسلامي فقد استقر رأي المشركين على محاربة الإسلام وإيذاء رسوله ، وتعذيب الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام[1]

بدأت الابتلاءات ضعيفة ثم لم تزل تكبر يوما فيوما وشهرا فشهرا ، حتى تفاقمت في أواسط السنة الخامسة حتى أصبحت مكة للمسلمين بلدا غير آمن ، فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة لأن فيها ملكا عادلا لا يظلم بجواره أحد ، وفي رجب سنة خمس من البعثة النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة يتكون من اثني عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي ﷺ اللذان قال فيهما النبي ﷺ: إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام [2] وكان رئيس الوفد عثمان بن مظعون وكان آل مظعون ربع هذا الوفد أو يزيدون ، فكان عثمان بن مظعون زعيمهم ومعه ابنه السائب بن عثمان ، وأخواه عبد الله وقدامة ابنا مظعون .

وكان رحيل المهاجرين تسللا في ظلمة الليل ، حتى لا تفطن لهم قريش ، فخرجوا إلى البحر ، و يمموا ميناء شعيبة ، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجلويتين إلى الحبشة ، وفطنت قريش لغيابهم ، فخرجت في آثارهم ، لكن لما بلغت الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين ، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار [3]

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم ، وفيه جمع كبير من سادة قريش وأخذ يتلو عليهم سورة النجم ، وكانوا لم يستمعوا بإنصات إلى كلام الله من قبل نتيجة تواصيهم على ذلك (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [4]

---

[1] –رحمة للعالمين ١ / ٥٩ ، ٦٠

[2] – زاد المعاد ١ /٢٤

[3] – رحمة للعالمين ١ /٦١

[4] – / ٢٦

ثم باغتهم بحلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلاب ، نسوا ما وصي بعضهم بعضا به حتى انتهت السورة بقوله ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾[1] ثم سجد ، و لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجدا ، و لم يتمالك الكفار أنفسهم فوقعوا ساجدين ، وسقط في أيديهم لما أحسوا جلال كلام الله لسوى زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفنائه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ممن لم يحضر هذا من المشركين ، فادعوا كذبا أن النبي ﷺ أطرى أصنامهم فقال (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى .

جاءوا بهذا الإفك المبين ، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يألفون الكذب ، ويطيلون الدس والافتراء[2]

وبلغ الخبر إلى مهاجري الحبشة بصورة تبشيرية ، فقد قيل لهم إن قريشا أسلمت فعادوا مسرعين فلما كانوا دون مكة ساعة من النهار عرفوا جلية الأمر ، فرجع منهم من رجع إلى الحبشة مرة أخرى و لم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيا أو في جوار رجل من قريش [3]

[1] – النجم / ٦٢

[2] – تفهيم القرآن ٥ /١٨٨

[3] – ابن هشام ١ / ٣٦٤

في جوار الله

دخل عثمان بن مظعون مكة في جوار الوليد بن المغيرة فلم يتعرض له أحـــد بسوء في حين يشتد الأذى على إخوانه المؤمنين الذين لم يدخلوا في جوار أحـــد ، فلما رأى عثمان ما فيه أصحاب النبي ﷺ من البلاء وهو يروح ويغدو في أمان مـــن الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوي ورواحي في جوار رجل من أهـــل الشـــرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كثـــير في نفسي ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة ، فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفت ذمتـــك ، ورددت إليك جوارك .

قال الوليد : لم يا ابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي .

قال عثمان : لا، ولكني أرضي بجوار الله عز وجل ، ولا أريد أن أستجير بغيره .

قال الوليد : فانطلق إلى المسجد ، فاردد علي جواري علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا فخرجا ، حتى أتيا المسجد ،فقال الوليد بن المغيرة : هذا عثمان قد جاء يـــرد علي جواري .

قال عثمان : صدق ، قد وجدته والله وفيا كريم الجوار ، ولكني قد أحببـــت أن لا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان رضي الله عنه ، ولبيد بن ربيعة الشاعر في مجلـــس مـــن قريـــش ينشدهم .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان : صدقت .

قال لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

فقال لبيد :يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذي جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجد في نفسك من قوله فرد عليه عثمان حتى حمى الشر بينهما ، فقام إليه ذلك الرجـــل

ولطمه على إحدى عينيه فخضرها ــ أي أذهب بصرها ــ والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية ولقد كنت في ذمة منيعة .

قال عثمان : بلى ، والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر ، يا أبا عبد شمس .

فقال الوليد : هلم يا ابن أخي إلى جوارك فعد .

قال عثمان : لا.[1]

كان عثمان راغبا في رضا الله ، ولذلك قال للوليد : إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها .

وكان عثمان يعلم إنه في جوار الله ، وجوار الله لا يخفر ولا يضيع من يكون فيه ، ولذلك قال للوليد : وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر .

تظهر كل هذه المعاني في قول عثمان فيما أصيب من عينه

فإن تك عيني في رضا الله نالها ... يدا ملحد في الدين ليس بمهتد
فقد عوض الرحمن منها ثوابه ... ومن يرضه الرحمن يا قوم يسعد
فإني وإن قلتم غوي مضلل ... سفيه على دين الرسول محمد
أريد بذاك الله والحق ديننا ... على رغم من يبغي علينا ويعتدي

ولكن ما أصاب عثمان في عينه كان شديدا و مخيفا حتى أصاب الحزن أصحاب النبي ﷺ ، وخشوا أن يموت من ذلك ، وقد غضبوا لذلك ، ولكن ماذا يمكن أن يفعلوا وهم مستضعفون ومأمورون بالصبر على كيد الأعداء ، وقد عبر عن هذا المعنى أصدق تعبير ، ووصف تلك المشاعر النفسية أدق وصف علي بن أبي طالب وهو يقول :

أمن تذكر دهر غير مأمون ... أصبحت مكتئبا تبكي كمحزون

[1] – أسد الغابة ٣ / ٣٨٥ ، البداية والنهاية ٣ / ٩٢

أمن تذكر أقـــــوام ذوي سفه يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين

لا ينتهون عن الفحشاء ما سلموا والغدر فيهم سبيـــــل غير مأمون

ألا ترون أقـــل الله خيرهـــــــم أنا غضبان لعثمان بن مظعـــــون

إذ يلطمون ولا يخشون مقلتـــــه طعنا دراكـــــا وضربا غير مأفون

فسوف يجزيهم إن لم يمت عجلا كيلا بكيل جـــــزاء غير مغبون [1]

كان ثقيلا على المسلمين والفرسان منهم خاصة مثل عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الشجعان ، أن يهانوا فلا ينتصرون لأنفسهم ، وأن يقاسي أحدهم أنواع العذاب وهو قادر على أن يرد عن نفسه ولكنه مأمور بالصبر وعـــدم الرد نظرا لقلتهم وكثرة المشركين ، ولتنصهر نفوسهم في بوتقة الصبر ، ولتمـــوت حظوظهم من الدنيا ، و تحيا حظوظهم من الآخرة ، واصبر على ما أصابك وصيـــة كانت لهم تاركين لله تعالى أن ينتصر لهم بحكمته كيفما يشاء ، وفي الوقت الـــذي يريد ، على المسلم حينئذ أن يكبت انفعالاته ويطوعها لأمر الله ، فـــإن لم يســتطع فليخرج مهاجرا ، وهو في جوار الله إن صبر على الأذى وأقام ، وهو كذلـــك في جوار الله إن خرج مهاجرا .

وهذا الذي فعله عثمان بن مظعون بالخروج من جوار الناس إلى جـــوار الله حدث لكثير من خير القرون خير الأصحاب ، فقد ضاقت مكة علـــى أبي بكـــر ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابـــه مـــا رأى،فاستأذن في الهجرة حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين

بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة ، سيد القارة ، وهو زعيم ،الأحابيش فقـــال : أين تريد يا أبا بكر ؟

قال : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي .

[1] - حلية الأولياء ١ / ١٠٤

قال ابن الدغنة : و لم ؟ فإن مثلك لا يخرج ومثلك لا يخــرج ، والله إنــك لــتزين العشيرة وتكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتعين علــى نوائــب الحق ، وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلدك .

فرجع معه أبو بكر ، وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريــش ، فقــال لهم : إن أبا بكر لا يخرج ، ولا يخرج مثله أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصــل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟

كفت قريش عن إيذاء أبي بكر رعاية لجوار ابن الدغنة ، ولكنهم قالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ويصل فيها ، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينــا بذلــك ولا يستعلن، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بعد ذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره .

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره في بني جمح ، فكان يصلــى فيــه ، ويقرأ القرآن ، فكان نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكــان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش مــن المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكــر بجوارك ، على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفنــاء داره ، فأعلن في الصلاة والقراءة فيه ، وإنا خشينا أن يفتتن أبناؤنا ونساؤنا فانهــه ، فــإن أحب أن يقتصر أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسله أن يــرد عليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك في ذمتــك ، ولســنا مقريــن لأبي بكــر الاستعلان . فأتى ابن الدغنة لأبي بكر فقال : قد علمت الذي قد عاقدتك عليــه : فإما أن تقتصر على ذلك ،وإما أن ترد علي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له

قال أبو بكر : فإني أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل .

وما إن خرج أبو بكر من جوار ابن الدغنة حتى لقيه سفيه من سفهاء قريش ،وهو عامد إلي الكعبة ، فحثى علي رأسه ترابا فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل ، فقال له أبو بكر : أترى ما يصنع هذا السفيه ؟
قال أنت فعلت ذلك بنفسك .
فصاح أبو بكر : أي رب ما أ حلمك ! ، أ ي رب ما أ حلمك ، أي رب ما أحلمك [1]!.

وخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر إلى المسجد ومعه جماعة المسلمين – على قلة عددها – فتفرقوا في نواحي المسجد كل رجل مع عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيبا ، ورسول الله ﷺ جالس – فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ما يشكون في موته ، ثم رجعت بنو تيم ، فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسوا الله ﷺ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا ، وقالوا لأمه ، أم الخير : انظري أن تطعميه أو تسقيه شيئا . فلما خلت به أمه ألحت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك ، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب ، فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين ذهبت معك إلى ابنك ، قالت : نعم ،فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا ،

[1] – البداية والنهاية ٣ / ٩٤

فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت : إن قوما نالوا هذا منك لأهـــل فســق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعـــل رســول الله ﷺ ؟ قالت هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها ، قالت :سالم صالح ، قال :أيـــن هو ؟ قالت : في دار الأرقم ، قال لله علي أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شـــرابا أو آتي الرسول ﷺ فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا بـــه يتكـىء عليهما حتى أدخلتاه على الرسول ﷺ فأكب عليه فقبله و أكب عليـه المســلمون ، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فبكى أبو بكر وقال : بأبي أنت وأمي يا رســول الله ﷺ ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي بـــرة بولدهـــا ، وأنت مبارك ، فادعها إلى الله ، وادع لها عسى الله أن ينفعها بدعائك ويســـتنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله ﷺ فأسلمت في مجلسها هذا [1]

رأى عثمان بن مظعون مثل إخوانه المؤمنين أن عليهم مســـؤولية كبـــيرة — ينحازون في سبيلها إلى جوار الله ويصيبهم ما يصيبـــهم في ســـبيله — و أن هـــذه المسؤولية لا يمكن الحياد أو الانحراف عنها بحال ، لأن العواقب التي تـــترتب علـــى الفرار عن تحملها أشد وخامة و أكثر ضررا مما هم فيه من الاضطهاد ، وأن الخسارة التي تلحق البشرية بهذا القرار لا تقاس بحال على المتاعب الـــتي تواجهـــهم نتيجـــة تحملهم لهذه المسؤولية .لقد كانوا مؤمنين بأنهم يقومون لرب العالمين . ويحاســـبون على صغير أعمالهم وكبيرها ، فكانت حياتهم مزيجا من الخوف و الرجـــاء كمـــا وصفتهم سورة المؤمنون ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّـــهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ فالدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنـــب الآخـــرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم مشاق الحياة الدنيا ومرارتها ، فلا يكترثون لها .

[1] البداية والنهاية ٣ / ٩٤ والرحيق المختوم ١٢٠

وكان القرآن يسير بهم إلى عالم الكمال ، يبصرهم بمشاهد من الكون تلفتهم إلى جمال الربوبية ، وكمال الألوهية وآثار الرحمة و الرأفة ، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حنينا ينسيهم كل أذى

كما كانت البشريات تترى عليهم من الله تعالى آونة ومن رسوله آونة أخرى، فلم يبشرهم بالجنة وحدها ، وإنما يبشرهم كذلك بملك الدنيا فيقول. حسب رواية الترمذي ، يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تسلموا وتملكوا العرب وتدين لكم العجم، فإذا متم كنتم ملوكا في الجنة .

وروى البخاري أن خباب بن الأرت قال : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله لنا ، فقعد وهو محمر وجهه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون [1]

وكانت هذه البشارات فاشية مكشوفة يعلمها المسلمون ويعلمها الكفرة ، حتى كان الأسود بن المطلب وعصابته إذا رأوا بعض المسلمين تغامزوا بهم ، وقالوا:قد جاءكم ملوك الأرض ، سيغلبون على ملك كسرى وقيصر ثم يصفرون ويصفقون [2] كانت هذه البشارات تجعل إحساس المسلمين صادقا وقويا بأن مايصيبهم من العنت الشديد ما هو إلا سحابة صيف عن قليل تنقشع ، فينحازون أكثر إلى جوار الله عز وجل

إن الفطرة السليمة التي صحبت عثمان بن مظعون من جاهليته إلى إسلامه ، وقوة القلب والروح التي تعد من سماته ، بالإضافة إلى تلك الشحنات الهائلة من القرب و الورع ومحبة الله ورسوله التي امتلأت بها نفسه العالية جعلت منه كائنا ربانيا ينتمي إلى السماء أكثر من انتمائه إلى الأرض ، ويعيش بنفسه وقلبه وروحه في

[1] - البخاري ١/ ٥١٠

[2] فقه السيرة ٨٤

الآخرة التي تجلت أمامه صورهما كاملة ، فأصبح معقد آماله أن يتمكن من النجـــاة فيها واجتياز عقباهما التي تتزلزل من شدهما قلوب الأنبياء وهم صفوة الله من خلقه .

لم يتبدل في عثمان بن مظعون إلا شغفه بالدنيا الذي تحول إلى شغف بالجنـــة حيث جوار الله عز وجل وهو يعلم علم اليقين أن جوار الله في الآخرة لا يتـــم إلا لإنسان عاش في جوار الله تعالى في الحياة الدنيا ، فهو يدعو له ، ويتحمل في سبيله ، ويستطيب الأذى في جواره على السلامة في جوار الخلق ، وجوار الخلق له تبعـــات قد يكون منها أن يرضيهم في غضب الله تعالى ، أما جوار الحق ، فإنه العصمة

و السلامة والأمن من الخوف ، غاية الأمر أن الله تعالى لا يقبل دعوى مـــن يزعم أنه في جواره إلا إذا عرضه للتمحيص و الفتنة ، هذه هي السنن الربانية التي يميز بها الخبيث من الطيب ، والصادق من الكاذب ، ومن وفى بعهده من الله ومن نكث الأواب

أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، ثم أمروا بها، والمســـلمون طـــائعون لله ورسوله ، إذا قضى الله ورسوله أمرا فليس لهم الخيرة من أمرهم ، ولقـــد أســـلموا أنفسهم ، ورضوا بحكم الله فيهم ، فرض عليهم الدين فأسلموا ، وقضى لهم بالصبر فصبروا ، وأمرهم بالهجرة فهاجروا ، وكان آل مظعون ممن أوعب في الخـــروج إلى الهجرة ، وغلقت بيوهم بمكة ، ونزل عثمان بن مظعون بمن هاجر معه من أهله على عبد الله بن سلمة العجلاني في المدينة .[1]

ثم خط لهم رسول الله ﷺ موضع دورهم بالمدينة .

وفي المدينة وجد عثمان بن مظعون نفسه ، وانسجم مع فطرتـــه ، إنـــه الآن يعيش في مجتمع مسلم ، وفي ظل دولة إسلامية ، يعبد بلا خوف ، ويجهر بصلاتـــه وقراءته بطمأنينة ، ويعد نفسه للآخرة بالعبادات والمعاملات وجهاد الأعداء، يخـــرج في السرايا ، ويقاتل في بدر ، وتأتيه المكافآت الربانية فيشتد شوقه إليـــه ، ويـــزداد

[1] – الطبقات الكبرى ٣ / ٢٨٨

طمعه فيه ، وكلما ازداد منه قربا ، ازداد زهده عن الحياة الدنيا وطيباتها ، وقد سمع من معلمه قوله : (ازهد في الدنيا يحبك الله) .

وجد عثمان في الزهد خلاصه في الدنيا .

عن ابن شهاب أن عثمان بن مظعون دخل يوما المسجد وعليه نمرة قد تخللت فرقعها بقطعة من فروة ، فرق الرسول ﷺ ورق أصحابه لرقته ، فقال : كيف أنتم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى ، وتوضع بين يديه قصعة ، وترفع أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ، قالوا : وددنا أن ذلك قد كان يا رسول الله ، فقال : إن ذلك لكائن ، وأنتم اليوم خير من أولئك .[1]

وبلغ به زهده أن كره أن ترى امرأته عورته ، فقد قال : يا رسول الله ، لا أحب أن ترى امرأتي عورتي ، قال : لم ؟ قال أستحي من ذلك ،قال : إن الله قد جعلها لك لباسا ، وجعلك لباسا لها ، وأهلي يرون عورتي وأنا أرى ذلك منهم ، قال : أنت تفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فمن بعدك ؟ .[2]

وبلغ به زهده أن تحدث مع بعض إخوانه في الاختصاء من أجل التبتل ، ولو أذن له لاختصينا[3]

وأخرج ابن سعد أن عثمان بن مظعون قعد يتعبد فأتاه النبي ﷺ فقال : يا عثمان إن الله لم يبعثني بالرهبانية ، وإن خير الدين عند الله ، الحنيفية السمحة [4]

وعن أبي بردة : دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ فرأينها باذة الهيئة : فقلن لها : مالك ، فما من قريش أغنى من بعلك ؟قالت لم يعد له فينا من إرب ، أما ليله فقائم ، وأما نهاره فصائم ، فدخل النبي ﷺ فذكرت ذلك له عائشة ، فلقيه النبي ﷺ فقال : يا عثمان ، إن الرهبانية لم تكتب علينا ، أما لك في

[1] – حلية الأولياء ١/ ١٠٥

[2] – البخاري ٩ / ١٠١

[3] – مسلم ١٤٠٢

[4] – الطبقات الكبرى ٣ / ٢٨٦ . الدر المنثور ٢ / ٣٠٩

أسوة ؟ فوالله إن أخشاكم لله ، وأحفظكم لحدوده لأنا، إن لعينيك عليك حقـــا ، وإن لجسدك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، فصل ونم ، وصم وأفطـــر، ثم أتتهم بعد ذلك عطرة كأنها عروس ، فقلن لها : ما لك يا خولة ؟ قالت ، أصابنا مـا يصيب الناس [1]

وقال عنه النبي ﷺ : إن ابن مظعون لحيي ستير [2]

ثم أصاب الوهن جسد عثمان ، وامتحنه الله بالمرض في السنة الثانية للـــهجرة الشريفة بعد غزوة بدر ، و لم يكن للمسلمين مقبرة بل كلما مات لهم ميت كـــانوا يبحثون له عن موضع يدفنون فيه ثم أمره الله أن يدفن موتى المســـلمين في البقيـــع وقال : أمرت بهذا الموضع[3]

ودخل النبي ﷺ على عثمان بن مظعون يوم مات فأحنى عليه كأنه يوصيـــه ثم رفع رأسه فرأوا في عينيه أثر البكاء ، ثم انحنى عليه الثانية ثم رفع رأسه ، فرأوه يبكي ثم انحنى عليه الثالثة ، ثم رفع رأسه وله شهيق ، فعرفوا أنه قد مات

فبكى القوم ، فقال النبي ﷺ : أذهب عنك أبا السائب ، فلقد خرجـــت و لم تتلبس منها بشيء [4]

ودفنه بالبقيع فكان أول قبر هناك قبر عثمان بن مظعون ، فوضــــع رســـول الله ﷺ حجرا عند رأسه ، وقال : هذا فرطنا ، فكان إذا مات الميت بعده ، قيل يـــا رسول الله أين ندفنه ؟ فيقول : عند فرطنا عثمان بن مظعون [5]

وعن ابن عباس لما مات عثمان بن مظعون قالت امرأته : هنيئا لك الجنـــة ، فنظر رسول الله ﷺ نظر المغضب ، قال ، وما يدريك ؟ فقالت : يـــا رســـول الله

[1] – المصنف ١٠٣٧٥ ، الطبقات الكبرى ٣ / ٣٩٥

[2] – كنز العمال / ٣٣٦٠٩

[3] – الطبقات الكبرى ٣ / ٣٩٧

[4] – مجمع الزوائد ٩ / ٢٣٠٢ ، الاستيعاب ٣ / ١٠٥٥

٦ –أسد الغابة ٣ / ٦٠٠

فارسك وصاحبك ، فقال : إني رسول الله وما أدري ما يفعل بي[1]

لما مات عثمان بن مظعون أشفق المسلمون عليه ، فلما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ قال: الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون .

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا مات ميت ، قال : قدموه على فرطنا ، نعم الفرط لأمتي عثمان بن مظعون [2]

ولما ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ قال : الحقي بسلفنا الخير عثمان بن مظعون[3]

قالت امرأته ترثيه

يا عين جودي بدمع غير ممنون	على رزية عثمان بن مظعون
على امرئ بات في رضوان خالقه	طوبى له من فقيد الشخص مدفون
طاب البقيع له سكني وغرقده	وأشرقت أرضه من بعد تعيين
وأورث القلب حزنا لا انقطاع له	حتى الممات فما ترقى له شوني[4]

عن المطلب بن عبد الله : لما دفن النبي ﷺ عثمان بن مظعون ، قال لرجل : هلم إلى تلك الصخرة ، فاجعلها عند قبر أخي أعرفه بها ، وأدفن إليه من دفنت من أهلي ، فقام الرجل فلم يطقها ، فقال يعني الذي حدثه : فلكأني أنظر إلى بياض ساعدي رسول الله ﷺ حين احتملها ، حتى وضعها عند قبره[5]

عن أم العلاء الأنصارية من المبايعات فذكرت أن عثمان بن مظعون اشتكى عندهم فمرضناه حتى توفى ، فأتى رسول الله عليه وسلم ، فقلت شهادتي عليك أبا السائب ، لقد أكرمك الله .

---

١ – الطبقات الكبرى ٣ / ٣٩٧

٢ – مجمع الزوائد ٩ / ٣٠٢

٣ – المستدرك ٣ / ١٩٠

٤ – أسد الغابة ٣ / ٦٠٠

٥ – سير أعلام النبلاء ١ / ١٥٤

فقال رسول الله ﷺ :وما يدريك ؟

قلت : يا رسول الله ، لا أدري بأبي أنت وأمي .

فقال : إني رسول الله وما أدري ما يفعل بي [1]

وفي رواية قال : أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير وإني لرسول الله ، ولا أدري ما يفعل بي

قالت : فوالله لا أزكي بعده أحدا

قالت : فأحزنني ذلك فنمت ورأيت لعثمان عينا تجري ، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال : ذلك عمله [2]

وعن عبيد الله بن عمرو قال : لما توفى عثمان بن مظعون و لم يقتل ، هبط من نفسي ، حتى توفى رسول الله ﷺ فقلت : ويلك ، إن خيارنا يموتون ، ثم توفى أبو بكر ، قال : فرجع عثمان في نفسي إلى المترلة [3]

يشغلنا في روايات خاتمة عثمان بن مظعون أمر الخاتمة ، فقد كان عثمان سابقا للإسلام ، وسابقا إلى الهجرة ، وسابقا إلى الجهاد في سبيل الله ، وزهد في الدنيا حتى رق المسلمون لهيئته ، وشكت امرأته من هجره ،وشهد بدرا ، وانقطع للعبادة وأراد الخصاء ، وبكى عليه رسول الله عليه وسلم ، ولكن لما جزمت زوجته بأن له الجنة ، ولما أعلنت أم العلاء بأن الله أكرمه ، غضب رسول الله ﷺ وقال : إنه أتاه اليقين ، ويتمنى له الخير ، ولكنه وهو رسول الله ﷺ لا يدري ما يفعل به، فكيف تزكي غيره من غير دليل ، لأن أمر الخاتمة لا يعلمه إلا الله والقلوب بين أصبعين من أصابعه يصرفها حيث يشاء ، وكان من دعائه حسن الخاتمة فالحكم بحسن خاتمة أو سوء خاتمة من غير دليل هو رجم بالغيب ، وحكم بالهوى لا يجوز، كل الذي نملكه أن ندعو للميت مهما بدا صلاحه أن يكون الله قد رزقه حسن

---

[1] – سير أعلام النبلاء ١ / ١٥٤

[2] – البخاري في المناقب ٣٩٢٩

[3] – الطبقات الكبرى ٣ / ٢٩٠

الخاتمة ، ولكن الطمأنينة عادت إلى نفس النبي ﷺ ونفوس أصحابه حـــين رأت أم العلاء لعثمان نهرا يجرى ، فبشرهم رسول الله ﷺ بأن ذلك عمله .

وبعد فإننا ندعو الله أن يرزقنا حسن الخاتمة كما رزقها عثمان بـــن مظعـــون رضي الله عنه .

الضياح بن ثابت

قيل اسمه النعمان ، وقيل عمير بن ثابت بن النعمان ، الأوسي من بني عمـــرو بن عوف .

مشهور بكنيته ، ولذلك اختلفوا في اسمه [1]

أسلم مع قومه الأنصار الذين تبوءوا الدار و الإيمان .

ثم انشغل مثل قومه بجمع الأوسمة التي ترفع الذكر و الكتاب يوم يقوم الأشهاد ويقول من يؤتي كتابه بيمينه ، هاؤم اقرءوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابية فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أســـلفتم في الأيام الخالية .

حاز أبو الضياح وسام السبق إلى الإسلام ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِـــكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [2]

وحاز مع قومه وسام المحبة : يحبون من هاجر إليهم .

ووسام صفاء النفس وسلامة القلب : لا يجدون في صدورهم حاجة ، مما أوتوا

ووسام الإيثار مع الخصاصة : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ووسام الرضا : لقد رضي الله عن النبي و المهاجرين و الأنصار .

ووسام الجهاد في سبيل الله بالنفس و المال من الطبقة الأولى

ووسام القتال في بدر[3]

ووسام الثبات في أحد

ووسام الصبر في الخندق

ووسام البيعة في الحديبية

---

[1] – أسد الغابة ٦/ ١٧٨

[2] – الواقعة / ١٠ – ١٣

[3] – أسد الغابة ٦ / ١٧٨

ووسام الشهادة في خيبر[1] حيث سكنت روحه المباركة طائرا أخضر يتنعـــم فـــوق أغصان الجنة إلى قيام الساعة .

فهلم نقتبس ما نعتبر به من مدارج السالكين

مدارج السالكين

وحسبنا معهم في بدر أعلى المدارج أن النبي ﷺ كان يحث الأنصـــار علـــى بذل المشورة حتى تكلم السعدان ثم ختما بالرجاء (لعل الله يريك منا ما تقـــر بـــه عينك)[2]

فلما قالا ذلك قال لهم : سيروا على بركة الله ، فإن الله وعـــدني إحـــدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ، ثم أراهم مصارعهم يومئذ ، هـــذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان فما عدا كل رجل مصرعه ، وعلم القـــوم أنهـــم يلاقون القتال ، ورجوا النصر لبشرى النبي صلى الله عليـــه وســـلم الـــذي عقـــد الألوية حينئذ[3]

وبعث الله السماء ، فأصاب المسلمين منه ما لبد الأرض و لم يمنع من الســـير ، وأصاب قريشا من ذلك ما لم يقدروا أن يرتحلوا منه وإنما بينهم قوز من الرمل[4] فكان مجيء المطر نعمة وقوة للمؤمنين وبلاء ونقمة على المشركين[5] وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقي عليهم فناموا حتى إن أحدهم يكون ذقنه بين ثدييه فما يشعر حـــتى يقع على جنبه ، وبعث النبي ﷺ عمار بن ياسر وعبد الله بـــن مســـعود فأطافـــا بالمشركين ، ثم رجعا فأخبراه أن القوم مذعورون ، و أن السماء تسح عليهم.

---

[1] – الواقدي / ٢ / ٦٣٤

[2] – إمتاع الأسماع ١ / ٨٢

[3] – ابن هشام ٢ / ١٨٦

[4] – القوز الكثيب العالي : المعجم الوسيط ٢ / ٧٦٦

[5] – إمتاع الأسماع ١ / ٨٤

وأصبح المسلمون ببدر قبل المشركين فطلعت قريش و المسلمون مصفون و قد أترعوا الحوض ماء و الشمس من خلفهم وهي في أعين المشركين ، فجاء رجل فقال يا رسول الله : إني أرى أن تعلو الوادي ، فإني أرى ريحا قد هاجت من أعلى الوادي ، وإني أراها بعثت بنصرك .

فقال النبي ﷺ : قد صففت صفوفي ورفعت رايتي ، فلا أغير ذلك ، ثم دعا ربه فنزل عليه إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين[1] فقام يخطب في الناس ،فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغي به وجهه ، وإن الصبر في مواطن اليأس مما يفرج الله به الهم وينجي من الغم وتدركون النجاة في الآخرة ، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ [2]

انظروا الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم بعد ذلة ، فاستمسكوا به يرض به ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا ما وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق وقوله صدق ، وعقابه شديد ، إنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لي وللمسلمين [3]

ولما رأى قريشا تصوب من الوادي ـ وكان أول من طلع زمعة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه ، فاستجال بفرسه يريد أن يتبوأ بالقوم منزلا ـ قال : اللهم إنك

[1] – الأنفال / ٩

[2] – غافر / ١٠

[3] – الواقدي ١ / ٦٠ ، الطبري ١ / ٤٤٠

أنزلت علي الكتاب ، وأمرتني بالقتال ، ووعدتني إحدى الطائفتين ، وأنت لا تخلف الميعاد ، اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ، وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة [1]

ولما نزل القوم بعث عمر بن الخطاب يقول : ارجعوا ، فإنه إن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من أن تلوه مني ، وأن أليه من غيركم أحب إلي من أن أليه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفا فاقبلوا، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم ولا نطلب أثرا بعد عين ، ولا يتعرض لعيرنا بعد هذا أبدا ، وأقبل نفر منهم حتى وردوا الحوض ، منهم حكيم بن حزام ، فأراد المسلمون طردهم فقال : دعوهم ، فوردوا الماء وشربوا ، فما شرب منهم أحد إلا قتل ،إلا حكيم بن حزام فإنه نجا على فرس له يقال له الوجيه ، ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد في يمينه قال : لا والذي نجاني يوم بدر [2]

وبعثت قريش عمير بن وهب ليحرز المسلمين فلما لم ير مددا ولا كمينا رجع ، فقال : ثلاثمائة إن زادوا قليلا ، معهم سبعون بعيرا وفرسان ، ثم قال : ــ يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، ألا تروهم خرسا لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعي ، والله ما أري أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجلا ،
فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خير في العيش بعد ذلك فروا رأيكم .

[1] إمتاع الأسماع ١ / ٨٧ ، الواقدي ١ / ٦١
[2] - الطبري ٢ / ٤٤١ ، ابن هشام ٢ / ٩٣

فبعثوا أبا سلمة الحبشمي ، فأطاف على المسلمين بفرسه ، ثم رجع فقال : والله ما رأيت جلدا ولا عددا ولا حلقة ولا كراعا ، ولكني رأيت قوما لا يريدون أن يؤوبوا إلى أهلهم قوما مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، زرق العيون كأنها الحصى تحت الحجف ، فروا رأيكم .[1]

هؤلاء هم أهل بدر كما وصفهم أعداؤهم ، منهم أبو الضياح الذي كان ظهره حاضرا فخرج ممتثلا للأمر ، ليس له الخيرة بعد اختيار الله ورسوله ، خرج لا يريد أن يؤوب إلى أهله ، ليس له منعة و لا ملجأ إلا الله عز وجل ثم سيفه ، فرمى الله عنه وعن إخوانه وقتل الله المشركين ، وأعز المسلمين بالنصر أولا ، ويقتل ألد أعدائهم مثل أبي جهل و أمية بن خلف .

أما مدرج أحد ، وكان أبو الضياح في الصف الأول منه ، فقد كان مدرج التمحيص والابتلاء ، واستشعار مغبة المعصية حيث أضاعت معصية الرماة ما تحقق من نصر كبير ، فأقبل المشركون بعد إدبار ، ونالوا بعدما كان قد نيل منهم ، ومس المسلمين منهم قرح ، وتبدت الشجاعة وظهر الإقدام ، وعرف المسلمون مقدار شجاعة نبيهم ﷺ الذي إذا اشتد البأس واحمرت الحدق لم يكن أقرب إلى العدو منه على ما ذكر أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه .

لم يغب أبو الضياح عن مدرج الخندق ، ولا مدرج الحديبية ، ولا أي مشهد من مشاهد النبي ﷺ [2].

ولكن الموعد الذي كان ينتظره أبو الضياح ، ويسعى إليه ، كان في خيبر ، ولخيبر حديث في تلك السطور .

---

[1] – ابن سعد ١ / ١٦ ، الواقدي ١ / ٦٢

[2] – أسد الغابة ٦ / ١٧٨

حديث خيبر

يجمع المؤرخون على أن يهود خيبر أشجع و أقوى العناصر اليهودية المحاربة في جزيرة العرب بلا استثناء ، الأمر الذي أبقى لهم وحدقم وتماسكهم وقد ظلوا بعيدين عن الصراع الدائر بين قبائل اليهود وبين العرب في يثرب ، أو بينهم وبين المسلمين بعد الهجرة المباركة ، فلم يذكر واحد من المؤرخين أن يهود خيبر خفوا لنجدة القبائل اليهودية التي واجهت المسلمين .

و لا شك أن يهود خيبر كإخوقم يهود يثرب لم يكن موقفهم من الإسلام موقف الترحيب ، بل موقف المعارضة ، هذا مما لا جدال فيه ، إلا أن يهود خيبر ظلوا حتى السنة الرابعة من الهجرة على الحياد بالنسبة للصراع الدائر بكل الوسائل لتقويض دعائم الدعوة ،و القضاء على النبي ﷺ ،فلم يقم يهود خيبر بأي عون مادي عندما تحول الخلاف مع المسلمين إلى نزاع مسلح بل ظهر يهود خيبر على الحياد حيال هذا التزاع حتى نزل عليهم بنو النضير بعد إجلائهم فخرجت خيبر عن حيادها[1] وبدأت تشحذ همم عشرة آلاف مقاتل صنديد [2] .

بترول بني النضير على يهود خيبر فقد تلاحم سلطان المال الذي يملكه يهود بني النضير مع القوة الحربية الكبيرة التي يمتاز بها الخيبريون فبدأ الخطر الداهم يطل برأسه و يهدد المسلمين حين أصبحت خيبر وكرا للمؤامرات اليهودية ، ومصدرا للإزعاج ، وبؤرة تلتقي فيها عداوات اليهود كافة في مواجهة المسلمين .

وعلى قول المقريزي فإن يهود خيبر وحدهم – القادرين على حمل السلاح– يقتربون من تسعة آلاف مقاتل ويتمون عشرة آلاف بالمقاتلين من يهود بني النضير المنفيين يستطيعون غزو المدينة التي لا يوجد بها في تلك السنة أكثر

[1] – محمد أحمد با شميل (غزوة خيبر) ٤١

[2] – الواقدي ٢/ ٥٣٠ ، السيرة الحلبية ٢ / ١٥٧

من ألف واحد من المقاتلين المسلمين المخلصين . لكن يهود خيبر — على عداوتهم للإسلام — لم يفكروا بهذه الأضعاف المضاعفة من المقاتلين غزو المدينة ، و لم يحاولوا ذلك من قبل ، ولعل ذلك يرجع إلى عاملين يتفقان وطبيعة اليهود.

العامل الأول : ذلك الطبع المتأصل عند اليهود وهو الجبن الذي يجعلهم لا يقاتلون إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر .

العامل الثاني : أن يهود خيبر لم تكن علاقاتهم طيبة مع القبائل العربية المحيطة بخيبر ، وعلى الرغم من عدم إسلام تلك القبائل فكان اليهود يخشون أن تغير هذه القبائل العربية الوثنية على واحة خيبر فتنهب خيراتها وتسبى نساءها وذرياتها حينما تصبح خالية من الرجال إذا خرجوا بجيوشهم لغزو المسلمين في عقر دارهم (المدينة) التي تبعد عن خيبر بما يزيد عن ثمانين ميلا وهي بعيدة بالنسبة لذلك الزمان ولكن فكرة الإطاحة بالمسلمين و القضاء عليهم وإطفاء شعلة الدعوة الإسلامية ظلت قائمة في أذهان هؤلاء اليهود تلح في نفوسهم إلحاحا شديدا .

وإذ استبعد الخيبريون أن يقوموا بأنفسهم — مع بني النضير — بغزو المدينة فقد استجابوا لشيطان بني النضير المنفي حيي بن أخطب بالسعي لدى جميع قبائل اليهود والمشركين لتقوم بقوات ضاربة لغزو المسلمين في يثرب غزوا شاملا ، واحتلال المدينة بعد زوال الوجود الإسلامي ،وتقديم الرشاوى من أجل ذلك ومن هذه الرشاوى منح هؤلاء الأعراب ثمار يثرب لسنة كاملة بعد زوال المسلمين على أن يساهم الخيبريون بسخاء كبير في تحمل جانب كبير من تموينات هذا الغزو الكبير الذي أصر يهود بني النضيرعلى إنجاحه ليعودوا على أكتاف يثرب مرة أخرى .

كان وقد التحزيب يضم شياطين بني النضير بالإضافة إلى (أبو عامر الفاسق) وهو عربي من الأوس وهوذة بن قيس الوائلي وهو عربي متهود وقد استطاع الوفد أن يقنع قريشا وكثيرا من قبائل نجد مثل أشجع و أسلم وأسد وفزارة وكلها من

غطفان و كانت غزوة الأحزاب التي أفشل الله تعالى خطط اليهود و المنافقين والمشركين ونصر المسلمين نصرا عزيزا وأوقع القتل و السبي في بني قريظة .[1]

لم يشك أهل خيبر في أن دور التصفية سيترل بهم بعد أن عرف تدبيرهم وانكشف مكرهم ولكن المسلمين خرجوا إلى الحديبية حيث توقع المشركون والمنافقون أن يكون فيها حتف المسلمين ولذلك تنفس اليهود الصعداء وتخلف المنافقون عن الخروج غير أن صلح الحديبية كان أثقل شيء على اليهود إذ عاد المسلمون أقوياء فقد أجبروا المكيين على الصلح وأوقفوا الأعراب على الحياد فهم إما في حلف مع المشركين أو في حلف مع المسلمين ،وبقي اليهود وحدهم في المواجهة ينتظرون غزو المسلمين لهم بين لحظة وأخرى ليقتصوا منهم على مكرهم السيئ .

وقد صدق حدس اليهود في هذه المسألة ، فقد نزل القرآن على النبي ﷺ وهو في طريق العودة من الحديبية ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ [2] ﴾ أي فتح خيبر [3]

ولقد كان هذا الوعد الإلهي تثبيتا للنبي و المؤمنين وعزاء لهم عما لا قوه من كرب وعناء نفسي نتيجة قبولهم بصلح الحديبية وصدهم عن المسجد الحرام وبمقتضى هذا الوعد الإلهي فقد أعلن النبي ﷺ استنفار أصحابه للزحف إلى خيبر ، فعمتهم الفرحة والابتهاج ، فإذا كانوا قد حرموا من الجهاد في الحديبية فقد فتح لهم سبيل الشهادة في خيبر كذلك صدر الأمر الإلهي بأن لا يخرج إلى خيبر إلا من بايع تحت الشجرة أما المنافقون و المتخاذلون الذين تخلفوا عن الحديبية بحجة الأولاد والبيوت فقد كشف الله سرهم وبين لهم سبب تخلفهم ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ

[1] - الواقدي ٢/ ٥٣٠
[2] - الفتح / ٢٠
[3] - الكشاف وابن كثير والطبري والواقدي / ٢ / ٦٢١

الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُورًا ﴾ [1]

ولكن عند إعلان النفير إلى خيبر سارع المخلفون وهدفهم القسمة في الغنائم ، وكان الأمر الإلهي بالمنع قائلا : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ ، قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [2]

وقال لهم النبي ﷺ لما جاءوا يستأذنونه في الخروج معه إلى خيبر لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد ، أما الغنيمة فلا [3].

واستثنى النبي ﷺ من هذا الأمر عشرين امرأة من نساء الصحابة طلبن الخروج معه لإسعاف الجرحى ونقل الماء وقال لهن على بركة الله [4]

وقد أعلن النبي ﷺ عزمه صراحة على غزو خيبر ما دام الله جعلها غنائم و لم يسمها قتالا ، وقد أغاظ هذا يهود يثرب الذين يعيشون في كنف المسلمين وتحت سلطانهم فعبروا بوضوح عن عطفهم على يهود خيبر وامتعاضهم من المسلمين لاعتزامهم الزحف عليهم بل إنهم عملوا على إحراج المسلمين الذين كانوا يضطرون إلى الاقتراض منهم، فقد روى أصحاب السير أن أحد الصحابة الغازين قال : لما تجهزنا إلى خيبر لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه وكان لأبي الشحم اليهودي عند عبد الله بن أبي حدرد خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله فلزمه فقال : أجلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله ، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها — وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن

[1] – الفتح / ١١

[2] – الفتح / ١٥

[3] – الواقدي ٢ / ٦٣٤

[4] – السيرة الحلبية ٢ / ١٨١

شهد الحديبية –فقال : يا أبا الشحم إنا نخرج إلى ريف الحجاز يعني خيبر في الطعام و الأموال .

فقال أبو الشحم حسدا و بغيا تحسب أن قتال خيبر مثلما تلقونه من الأعراب، فيها –و التوراة – عشرة آلاف مقاتل .

قال ابن أبي حدرد : أي عدو الله تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا و الله لأرفعنك إلى رسول الله .

فال : فقلت يا رسول الله ألاتسمع إلى ما يقول هذا اليهودي ؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم .

فسكت رسول الله ﷺ إلا أنه حرك شفتيه و لم يسمع منه شيئ ، وقال اليهودي : يا أبا القاسم هذا قد ظلمني وحبسني حقي وأخذ طعامي .
قال النبي ﷺ لابن أبي حدرد أعطه حقه .

قال عبد الله،فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم وطلبت بقية حقه فقضيته ولبست ثوبي الآخر،وكانت على عمامة فاستدفأت بها،وأعطاني سلمة بن أسلم ثوبا،فخرجت في ثوبين مع المسلمين ، ونفلني الله خيرا ،وغنمت امرأة بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمال [1] .

و لم يكتف اليهود بإحراج المسلمين،ولا بإعلان العطف على يهود خيبر،وإنما عملوا مع المنافقين وبعض الأعراب جواسيس متطوعين يمدون يهود خيبر بأحوال المسلمين واستعداداتهم أولا بأول .

بعث عبد الله بن أبي زعيم المنافقين رسالة إلى خيبر يقول لهم فيها : إن محمدا سائر إليكم فخذوا حذركم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم ، واخرجوا لقتاله ، ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزل لا سلاح معهم إلا القليل [2] .

[1] – السيرة الحلبية ٢ / ١٥٧
[2] – السيرة الحلبية ٢ / ١٥٧

اهتم اليهود في خيبر برسالة ابن أبي واختلفت آراؤهم بين من يوافق رأى المنافقين بتحصين الحصون ، والخروج لملاقاة المسلمين ، وبين من يرى أن يظلوا في حصونهم كما هو دأبهم يحاربون من ورائها ، ومن يرى الهجوم على المدينة قبل أن يفصل المسلمون منها .

ولكن كنانة بن أبي الحقيق ملك اليهود رجح فكرة البقاء في الحصون ليقينه من أن النبي ﷺ لن يجرؤ على مهاجمتهم بسبب كثرتهم وقلة المسلمين [1] .

واستنصر اليهود قبائل الأعراب كما فعلوا في غزوة الأحزاب وعرضوا عليهم أموالا طائلة ، فاستجاب لهم عيينة الفزاري وطليحة الأسدي ، ولكن الحارث بن عوف المري رفض أن يتورط مرة ثانية في قتال النبي ﷺ وحاول أن يخذل عيينة ، وقال له : يا عيينة إنك توضع في غير شيء ، والله يا عيينة ليظهرن محمد على ما بين المشرق ، يهود يخبروننا بذلك ، أشهد أني لسمعت أبا رافع بن أبي الحقيق يقول : إنا لنحسد محمدا على النبوة حيث خرجت من بني هرون ، وهو (أي محمد) نبي مرسل ، ويهود لا تطاوعني على هذا ، ولنا منه ذبحان ، واحد بيثرب وقد كان ، وواحد بخيبر .

قال الحارث : فقلت : يا سلام ، يملك الأرض جميعا ؟

قال : نعم والتوراة التي أنزلت على موسى ، وما أحب أن يعلم يهود بقولي فيه [2]

ولم يستمع عيينة لنصيحة الحارث ، وفوجئ الجميع بالمسلمين يخرجون إلى خيبر مستعينين بأدلة خبيرين بدروب الصحراء ومسالك الطرق منهم حسيل بن خارجة ، وعبد الله بن نعيم [3]

[1] - الواقدي ٢ / ٥٣٠

[2] - زاد المعاد ٢ / ٣٣٩

[3] - ابن هشام ٢ / ٣٣٠ ، الحلية ٢ / ١٥٨

وتتقدم الجيش فرق الاستكشاف، منها فرقة عباد بن بشر الـــذي التقـــى في طريقه برجل من أشجع اشتبه عباد فيه فألقى القبض عليه وأنكر أن تكون له صلـــة باليهود فسأله عباد : من أنت ؟

قال : باغ أبتغي أبعرة ضلت لي : وأنا على أثرها .

قال عباد : ألك علم بخيبر ؟

قال : عهدي بها حديث ، فيم تسألني عنه ؟

قال : عن اليهود .

قال نعم ، كان كنانة بن أبي الحقيق و هوذة بن قيس سارا في حلفائهما من غطفـــان فاستنفروهم ، وجعلا لهم تمر خيبر سنة ، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع (الخيول) والسلاح ، يقودهم عيينة بن بدر الفزاري ، ودخلوا معهم في حصونهـــم ، وفيـــها عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحصون التي لاترام ، وسلاح وطعام كثـــير ، لـــو حصروا سنين لكفاهم ، وماء راتن (دائم) يشربون من حصونهم ،ما أرى لأحـــد من الناس بهم طاقة .

وهنا ترجح لدى قائد دورية الاستكشاف أن الأعرابي عين لليهود ، ومـــأجور لهم ، فضربه بالسوط ضربات ، وقال له : –

– ما أنت إلا جاسوس لليهود .

ثم شدد عليه قائلا : –

– أصدقني وإلا ضربت عنقك .

قال الأشجعي : –

– أتؤمنني على أن أصدقك ؟

قال عباد :– نعم .

قال الأعرابي : –

القوم وجلون خائفون مرعوبون لما قد صنعتم بيهود يثرب ، وإن يهود يـــثرب بعثوا ابن عم لي وجدوه بالمدينة ، قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بـــن أبي

الحقيق ، يخبرونه بقلتكم ، وقلة خيلكم وسلاحكم ، ويقولون لــه : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه لم يلق قوما يحسنون القتال ، وقريش والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم ، وجودة حصونكم ، وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى هزيمة محمد ....

تقول قريش : إن خيبر ستظهر ....

ويقول آخرون : - يظهر محمد ، فإن ظهر فهو ذل الدهر .

قال الأعرابي : - وأنا أسمع كل هذا ، فقال لي كنانة بن أبي الحقيق :-

اذهب معترضا للطريق ، فإنهم -- المسلمين -- لا يستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تتقوى به ، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا فإنهم لن يدعوا سؤالك ، وعجل بالرجعة إلينا .

فاقتاد عباد بن بشر هذا الأعرابي إلى النبي ﷺ وأخبره خبره ، واستأذن عمر في قتل الأعرابي ، فقال عباد : قد أمنته ، فأقر النبي ﷺ هذا الأمان ، وقال له : - أمسكه معك يا عباد .

فأوثقه عباد رباطا ، فلما حضر النبي ﷺ أمر بإحضار الجاسوس ، ثم عرض عليه الإسلام فأسلم ، فنجا من الموت.[1]

وأرسل النبي ﷺ إلى قبائل غطفان المتحالفة مع اليهود يفاوضهم على أن ينفلهم تمر خيبر الذي وعدهم اليهود إياه قائلا لهم : خلوا بيني وبين القوم فإن الله وعدني أن يفتحها لي .

ولكن زعماء فزارة وأسد رفضوا عرض المسلمين غير واثقين من وعد الله تعالى لحزبه ، وقالوا لن نتخلى عن حلفائنا ، وسوف نقاتل إلى جانبهم ، فقد رأوا أن عرض اليهود مضمون عن عرض المسلمين بالنظر إلى استعدادات الجانبين [2].

---

[1] - الواقدي ٢ / ٦٤٠

[2] - البداية والنهاية ٤ / ١٨١ ، الحلية ٢ / ١٧٥

زحف الجيش الإسلامي مسلما أمره لخالقه ومسلما قياده لقائده ، ورفع بعض الجيش أصواهم بالدعاء فأحدثوا ضجة ، فقال النبي ﷺ : – اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا .

وعندما أشرف النبي صلى الله عليه على خيبر أمر الجيش بالوقوف ، ثم دعا الله تعالى فقال :

اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها .

ثم قال لأصحابه : – أقدموا باسم الله [1]

وكان اليهود ينهضون من نومهم قبل الفجر فيلبسون ملابس الحرب ويحملون السلاح ويستعرضون المقاتلين اليهود كل يوم استعدادا للمواجهة وتقوية لقلوبهم إلا إن الله تعالى أخذهم بالنوم تلك الليلة فلم ينهضوا قبل الفجر بل ناموا و لم يتحركوا و لم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس فأصبحوا وأفئدهم ترجف و لم يشعروا إلا وجيش الإسلام أمام حصونهم .

فقد فتحوا الحصون ومعهم الفئوس والكرازين و المكاتل متجهين إلى زراعتهم فلما رآهم النبي ﷺ قال مبشرا بالفتح : الله أكبر خربت خيبر إنا إذا أنزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

حاصر النبي ﷺ حصون خيبر الثمانية الحصينة واستدعى النبي ﷺ أول قائد وهو علي بن أبي طالب وأعطاه الراية فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

[1] – زاد المعاد ٢ / ٣٢٧

فقال النبي ﷺ : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإســلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي بك الله عز وجل رجــلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم .[1]

وقد أبى اليهود الدخول الإسلام فهاجم المسلمون حصونهم .

وقد كانت رايات المسلمين أربعا رايتين للمهاجرين مع أبي بكر وعمر ورايتين للأنصار مع سعد بن عبادة و الحباب بن المنذر [2]

أما قيادة المعسكر وإدارة شئونه وتنظيم أعماله و إمداده وتموينه فقد أسـندت إلى عثمان بن عفان [3]

وقد ووجه المسلمون بمتاعب عظيمة ومشقات كبيرة فبالإضافة إلى مناعـة القلاع و الحصون و الكثرة الهائلة للمقاتلين اليهود فإن رداءة الجو أصابت الكثير من المسلمين بالحمى وهم لم يبدأوا الهجوم .

ثم توالت هجمات المسلمين على حصون النطاة وكان حصن ناعم أول حصن هاجمه المسلمون حيث دار قتال عنيف باءت فيه كل هجمات المسـلمين في اليـوم الأول بالفشل وتكبدوا خسائر فادحة وكشفهم اليهود حتى انتهوا إلى مكان النبي ﷺ فاشتد عليه ذلك[4] وغير مقر قيادته بناء على نصيحة الحباب بن المنذر و لم يـأت المساء حتى أعاد المسلمون الكرة على اليهود حتى لجأوا إلى الحصن وأغلقوا أبوابـه عليهم .

[1] – البخاري ٥/ ١٢٠

[2] – السيرة الحلبية ٢ / ١٦٠ ، الطبقات الكبرى ٢ / ١٠٦ ، ابن هشام ٢ / ٣٣٤

[3] – إمتاع الأسماع ١ / ٣١٢

[4] – إمتاع الأسماع ١ / ٣١٤

استمر حصار حصون خيبر وقتا طويلا حتى حدث نقص خطـــير في المـــواد الغذائية أدى إلى حدوث مجاعة في بعض فرق الجيش الإسلامي .

يقول معتب الأسلمي :أصابنا معشر أسلم خصاصة في خيبر فأقمنا عدة أيـــام على حصن النطاة لا نفتح شيئا فيه طعام فأجمعت أسلم أن يرسلوا إلى رســـول الله ﷺ أسماء بن حارثة فقالوا له : قل له إنا قد جهدنا من الجوع و العطش فجاء أسمـــاء فقال : يا رسول الله إن أسلم تقول : إنا قد جهدنا من الجوع و العطش فـــادع الله لنا فدعا لهم ثم قال : و الله ما بيدي ما أقريهم ثم صاح فقال : اللهم افتح عليـــــهم أعظم حصن فيه أكثره طعاما وأكثره ودكا .

تقول أم مطاع الأسلمية وكانت قد شهدت خيبر : لقد رأيت أسلم حـــين شكوا إلى رسول الله ﷺ من شدة الحال فندب الناس فنهضوا فرأيت أسلم أول مـــن انتهى بحصن صعب بن معاذ وإن عليه لخمسمائة مقاتل فما غابت الشمس من ذلـك اليوم حتى فتحه الله وكان عليه قتال شديد برز رجل من اليهود يقال لـــه : يوشـــع يدعو إلى البراز فبرز إليه الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات فقتله الحباب، وبرزآخـــر يقال له : الديال فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري فيضربه ضربة على هامته ويقـــول خذها وأنا الغلام الغفاري فقال الناس بطل جهاده فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقـال : ما بأس به يؤجر و يحمد[1]

وبلغ الأمر أن بعض المسلمين نحروا حمرا أهلية وطبخوا لحومـــها في القـــدور والمسلمون جياع ومر بهم رسول الله ﷺ وهم على تلك الحال وأخبر خبرهم فـــأمر

[1] - الواقدي ٢ / ٦٦٠ ، البداية والنهاية ٤ / ١٩٥ ، ابن هشام ٢ / ٣٣٢

مناديا ينادي أن رسول الله ينهاكم عن الحمر الإنسية فكفأوا قدورهم وأذن لهـــم في لحوم الخيل[1] ولكن الله عز وجل لم يخذل المسلمين فعلى الرغم من كثرة عدد اليهود ومناعة حصونهم وقوة أسلحتهم إلا أن الله هزمهم علـــى أيـــدي المســـلمين فتهاوت حصونهم حصنا في إثر حصن وتساقط زعماؤهم قتلى زعيما في إثر زعيم .

وقد حاول عيينة بن حصن الفزاري أن يعين حلفاءه ولكنه وصل بعد أن كان النبي ﷺ قد استولى على خيبر و لم يمنعه حياؤه من أن يطلـــب مـــن النـــبي ﷺ أن يشركه في غنائمها قائلا – أعطني يا محمد مما غنمت من حلفائي فإني انصرفت عنك وعن قتالك وخذلت حلفائي و لم أكثر عليك ورجعت عنك بأربعة آلاف مقاتل .

فقال النبي ﷺ : كذبت

فقال : أجزني يا محمد

فقال النبي ﷺ : لك ذو الرقبة .

قال عيينة : وما ذو الرقبة ؟

قال النبي ﷺ : الجبل الذي رأيت في النوم أنك أخذته وكان عيينـــة رأى في المنام (وهو بجيشه دون خيبر) أنه أعطى ذا الرقبة جبلا بخيبر فتفاءل وقال : قـد والله أخذت برقبة محمد[2]

وقال رجل لعينيه يؤنبه لا أنت نصرت حلفاءك فلم يعدوا عليك حلفـــا ولا أنت حيث وليت كنت أخذت تمر خيبر من محمد سنة –كما وعدك لو تخليت عـــن

[1] – البخاري ٥ / ٢٨١، الواقدي ٢ / ٦٦٠

[2] – السيرة الحلبية ٢ / ١٦٢

اليهود — والله إني لأرى أمر محمد أمرا ظاهرا ليظهرن على من ناوأه فانصرف عيينة إلى أهله يفتل يديه .

فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف المري ، فقال له : — ألم أقل لك إنك توضع في غير شئ ؟ والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب ، اليهود كانوا يخبروننا بذلك ، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول : — إنا نحسد محمدا على النبوة حيث خرجت من بني هرون ، محمد نبي مرسل ، واليهود لا تطاوعني على هذا ، ولنا منه ذبحان، واحد بيثرب ، وآخر بخيبر .

قال الحارث : — قلت لسلام : — يملك الأرض جميعا ؟ !

قال : نعم والتوراة التي أنزلت على موسى ، وما أحب أن تعلم اليهود بقولي فيه .

إن العقيدة الصحيحة الراسخة التي كان يعتقدها المجاهد المسلم ، ويلتزم بها ويقاتل بوفاء وولاء تحت رايتها هي التي قلبت موازين القوى في خيبر ، وكانت العامل الأوحد في انتصار القلة المؤمنة القليلة على تلك الكثرة اليهودية الكاثرة .

إن وفرة السلاح وكثرة العدد ليس وحده الذي يضمن النصر في المعارك ، وإنما الذي يضمن النصر ويحققه هو — أولا وأخيرا — رسوخ العقيدة الصادقة في ضمير المحارب ، والسير في درب الجهاد على هدى نورها ، والتسلح بالإيمان قبل حشد الرجال وتكديس السلاح .

إن المعركة تكون سلاحا لسلاح أمام فريقين بلا عقيدة إلا القوة ، ولا إيمان إلا بالمادة ، فعند ذلك يوكلون إلى المادة ، أما أصحاب اليقين ، فإن أهم أسلحتهم

أن ينصروا الله فينصرهم الله ، ويثبت أقدامهم ، وكما قال الفاروق رضي الله عنـه : إن الله أعزنا بهذا الدين ، فمن طلب العزة بغير الإسلام أذله الله .

لم يعتمد أصحاب خيبر –وهم ألف ومائتا مقاتل يواجهون سلاحا متطـــورا وحصونا منيعة وأكثر من عشرة آلاف مقاتل – إلا على الله وحده ، و لم يلـوذوا إلا بإيمانهم ، و لم يتحصنوا إلا في حصن الله وهو نصرهم لله الـــذي وعــد أن ينصــر من ينصره .

وكان أبو ضياح بن ثابت بن النعمان من أولئك الذين وثقوا عقدهم مــع الله عز وجل منذ كان سابقا إلى الإسلام إلى أن التقى بوعد الله الحق في خيــبر حيــث كان موعده مع الشهادة[1] في موكب من ستة عشر شهيدا مسلما ، بعد أن كبـــدوا اليهود ثلاثة وتسعين قتيلا ، وغنم المسلمون أرضهم وديارهم وذراريهم .

[1] – زاد المعاد ٢ / ٦٧٧ ، أسد الغابة ٦ / ١٧٨

عبد الله بن مسعود

مع الطليعه

القارئ الملقن ، والغلام المعلم، والفقيه الملهم، صاحب السواد والسرار، والسباق و البدار،أقربهم وسيله وأرجحهم فضيلة، وكان من الرفقاء والنجباء، والوزراء.

وقال عنه أبو نعيم في الحلية :من طبقة السابقين المهاجرين المعروفين بالنسك من المعمرين والرقباء،عبد الله بن مسعود،الكلف بالمعبود ، والشاهد للمشهود، والحافظ للعهود، والسائل الذي ليس بمردود.[1]

أبوه مسعود بن غافل الهذلي، من بني هذيل،وكان حليفاً لعبد الحارث بن زهرة إلى

وأمه أم عبد بنت عبد بن سواء من هذيل كذلك.

وكنيته أبو عبد الرحمن الهذلي.[2]

كان عبد الله غلاماً حين دخل على أمه فوجدها مازالت جالسه،وقد أسندت خدها على راحة يدها, كان الحزن يكسو وجهها , فلقد مات زوجها مسعود بن غافل وترك لها عبد الله وعتبة, و لم يترك لهم شيئا من متاع الدنيا.

حاول عبد الله أن يخفف من حزن أمه , ولكنها نظرت الى جسد طفلها النحيل , وقالت فى أسى شديد , لو كنت صحيح الجسم ما حزنت, ولكنك لا تصلح لعمل قال عبد الله : أستطيع يا أماه أن أرعى الغنم .

هبت أم عبد الله من جلستها , وأمسكت بيد ابنها , وأخذت طريقها إلى مكة لعله يرعى غنم أحد سادة قريش فيسد خلة الأسرة المعوزة , وكان عقبة بن أبي معيط أول من لقيها قبل أن تدخل أم القرى , وسألها عن وجهتها فأخبرته , فقال: غليم هذيل يرعى غنمي , ودس فى يدها قليلا من المال تقبلته بالرضى والبشاشة

[1] – حلية الأولياء ١ / ١٢٤

[2] – الطبقات الكبرى ٢ / ٣٤٢

وخرج عبد الله بغنم عقبة بن أبي معيط إلى سفوح جبال مكة ولما غربت الشمس عاد إلى أمه .

سمع عبد الله همسا يتردد فى جنبات مكة عن الأمين محمد ﷺ وما يدعو إليه , فسأل من أفضى إليه بالخبر , وأين أجد الأمين لأستمع إليه؟ فقال يا بن غافل إن محمدا إما فى داره أو فى البيت الحرام , فهل يترك الغنم وحدها وينطلق باحثا عنه ؟ وما العمل لو لقيه عقبة ؟ إنه لن يدعه دون أن يذيقه ذوائب سوطه .

أوى عبد الله إلى فراشه فى المساء فلم يغمض له جفن على شدة تعبه وضآلة جسمه وأحست به أمه يتقلب فى فراشه , وقبل أن تسأله أفضى إليها برغبته فى لقاء محمد بن عبد الله ليسمع منه , فحذرته قائله : إن أبا الحكم بن هشام وعقبة ابن أبي معيط وأميه بن خلف يترصدون محمدا ومن يتبعه , ويشيعون أنه ساحر وكاهن أو مجنون ,ولعلهم أخبر بحقيقته ونحن لسنا فى حاجة إلى دريهمات عقبة فحسب , لكننا كذلك لا نقوى على مواجهة هؤلاء الملأ

سكت عبد الله , ولكن مازال معلقا بأمل لقائه , حتى كان يوم جاءه فى المرعى رجلان , قال أحدهما : يا غلام , هل عندك من لبن تسقينا؟

قال عبد الله: ما عندي شاة إلا تحلب , وإني مؤتمن ولست بساقيكما.

فقال الرجل : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل؟

قال عبد الله : إن هاهنا عناقا حملت أول الشتاء , وقد أخرجت_ ألقت ولدها ناقص الخلق فى تمام الحمل _ وما بقى لها من لبن .

قال الرجل: ادع لها .

فدعا لها عبد الله فاعتقلها الرجل , ومسح على ضرعها ودعا بكلمات حتى حفلت وأنزلت , فجاء صاحبه بصخرة مقعرة فحلب وسقى صاحبه, ثم حلب وسقى عبد الله ثم حلب وشرب, ثم قال للضرع : اقلص, فقلص كما كان .

ذهل عبد الله مما رأى وسمع, وحدق فى الرجل , كانت نظراته مطمئنة , وكلماته كالماء البارد في يوم قائظ, وابتسامته لاتفارق شفتيه .

سأله عبد الله : بالله من أنت؟ فو الله ما رأيت مثلك قط .

قال الرجل : أو تراك تكتم على حتى أخبرك ؟

نظر عبد الله إلى عينيه اللتين يملأهما الوجد والإصرار والثبات وقال : نعم أكتم .

فقال الرجل: أنا محمد رسول الله, وهذا أبو بكر الصديق .

قال عبد الله بن مسعود : محمد الأمين ؟ أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ ؟

فقال النبي ﷺ : إنهم ليقولون ذلك .

فقال: علمني مما عندك .

فقال : إنك غلام معلم .[1]

لقد فاقت حلاوة الكلمات التي سمعها من محمد بن عبد الله وهو يدعو ربه حلاوة اللبن

الذي شربه من ضرع الشاة التي لا تدر اللبن .

رجع ابن مسعود يركبه التعب , فقالت له أمه : ما بك؟

فأخبرها بما جرى , فقالت أمه : لعل أشراف مكة قد صدقوا في قولهم : إنه ساحر , يحلب شاة لم ينز عليها فحل ؟

رد عبد الله : لا والله : انه ليس بساحر , والليلة الثانية لم تكتحل عيناه بالنوم .

تذكر عبد الله أول مرة علم بها عن النبي ﷺ كما يرويه ابن عساكر فى تاريخه إن أول شئ علمت من رسول الله صلى عليه وسلم , قدمت مكة مع مجموعة لي أو ناس من قومي نبتاع منها متاعا , فكان في بغيتنا شراء عطر , فأرشدونا على العباس ابن عبد المطلب , فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم , فجلسنا إليه , فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا أبيض تعلوه حمرة , وله وفرة جعدة إلى أنصاف أذنيه أشم أقنى أذلف أدعج العينين , براق الثنايا , دقيق المسربة , شثن الكفين والقدمين , كث اللحية, عليه ثوبان أبيضان , كأنه القمر ليلة البدر ,

[1] -أسد الغابة ٣ / ٢٥٥

يمشي على يمينه غلام حسن الوجه مراهق أو محتلم ــ هو على بـــن ابى طـــالب ــ تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها , حتى قصد نحو الحجر فاستلمه , ثم استلمه الغلام, واستلمته المرأة ــوهي خديجة بنت خويلد ــ ثم طاف بالبيت سبعا , والغلام والمـــرأة يطوفان معه , ثم استقبل الركن فرفع يديه وكبر , وقامت المرأة خلفهما , فرفعـــت يديها وكبرت , ثم ركع فأطال الركوع , ثم رفع رأسه من الركوع فقنت مليـــا , ثم سجد وسجد الغلام معه والمرأة يتبعونه يصنعون مثلما يصنع , فرأينا شيئا أنكرنـــاه لم نكن نعرفه بمكة , فأقبلنا على العباس فقلنا : يا أبا الفضل ,أن هذا الديـــن حـــدث فيكم أو أمر لم نكن نعرفه فيكم؟

قال : اجل والله , ما تعرفون هذا ؟

قلنا : لا

قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله , والغلام على بن أبي طالب , والمـــرأة خديجة بنت خويلد , أما والله ما على وجه الأرض أحد نعلمه يعبـــد الله هـــذا إلا هؤلاء الثلاثة[1]

ولما أسفر الصبح انطلق عبد الله إلى الحجر فقال بلا تردد

إني أشهد انك نبي وأشهد أن ما جئت به حق وأنا متبعك فعلمني من هـــــذا القول الطيب

فقال النبي ﷺ : أنت غلام عليم

يقول عن نفسه , لقد رأيتني وأنا سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا .[2]

ولما رجع إلى أمه كان وجهه يتهلل بشرا فتساءلت : لم لم تذهب مع الغنم ؟

فقال عبد الله : لقد أسلمت .

فقالت أم عبد : هل اتبعت محمدا ؟

قال : نعم

[1] - البداية والنهاية / ٣

[2] - سير أعلام النبلاء ١ / ٤٦١

قالت : فكيف بك مع سيدك عقبة ؟

قال : لم يعد لي سيدا

فقالت : إلام يدعو ابن عبد الله ؟

قال : يدعو رسول الله إلى خيري الدنيا والآخرة

فتساءلت : أثم حياة بعد هذى؟

قال: إي وربي وإما جنة عدن , وإما نار الله الموقدة .

فسكتت أم عبد, وهبل ومناة واللات والعزى ؟

قال عبد الله : أحجار لا تنفع ولا تضر

وتذكرت أم عبد يوم أن هبت العاصفة وانكفأ هبل على وجهه , وكسرت ذراعه , وطمس وجهه فى التراب , ولو كان إلها كما يزعمون فلماذا لم يقف شامخا في وجه العاصفة .

قالت: أم عبد : ماذا أقول لو أردت أن أتبع محمدا ؟

قال: قولي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله

ونطقت أم عبد وكانت من السابقات الأوليات مثلما كان ابنها عبد الله بن مسعود من السابقين الأولين [1].

ولقي عقبة بن أبي معيط أم عبد فقال لها : أصبأ ابنك ؟

فقالت: أم عبد لا , ما صبأ

فقال عقبة : أحقا ما تقولين ؟ حمدا للآلهة , فالناس يزعمون أنه صبأ .

فقالت أم عبد ما صبأ ابنى عبد الله , ولكننا آمنا بهذا الرجل .

فقال عقبة فى غيظ وعجب : ماذا تقولين ؟ آمنت أنت وابنك بهذا الرجل ؟ أنت وضعيف هذيل تتمردان على دين أبيكما ؟

[1] - الطبقات الكبرى ٢ / ٣٤٢

فقالت أم عبد : ليتك تلقى رسول الله وتسمعه , فلقد جاءكم بخير الدنيا وسعادة الآخرة

فقال عقبة : أنا ألقى يتيم قريش الذى يدعى أنه نبى وما هو إلا شاعر ؟

فقالت أم عبد : إن نبي الله ليس بشاعر , ولكن يتلو ما أنزل الله عليه .

ودخل عبد الله دار الأرقم , واقترب من النبي ﷺ يستمع منه ويقتبس من نوره , حتى كان يوم قال أصحاب النبي ﷺ : والله ما سمعت قريش بهذا القرآن يجهر به لها قط , فهل رجل يسمعهم ؟

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

فنظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى جسد عبد الله الهزيل النحيف , وقال مصعب بن عمير : أنت يا ابن أم عبد ؟وقال بعضهم : إنا نخشاهم عليك , وإنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه بسوء .

قال عبد الله : دعوني فان الله سيمنعني .

انطلق ابن أم عبد حتى أتى المقام في الصحن , وقريش فى أنديتها ,

حتى قام عند المقام فقام رافعا صوته : بسم الله الرحمن الرحيم , الرَّحْمَـنُ , عَلَّمَ الْقُرْآنَ , خَلَقَ الْإِنْسَانَ , عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ,[1]

فاستقبل سادات قريش فقرأ بها , فتأملوا , فجعلوا يقولون , ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد , فقاموا فجعلوا يضربون فى وجهه , وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ , ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ,

فقال: ما كان أعداء الله قط أهون على منهم الآن ولئن شئتم غاديتهم بمثلها ,

قالوا : حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .

[1] مسند الإمام أحمد ١ / ٣٧٤

وشعرت أمه بقوة ابنها وصبره في الله , وتبسمت , فقد هزم مغاوير قريش وهو الفقير الهزيل عديم الجاه , فقد أكسبته عقيدته غنى بالله وحولا وقوة بالله , ورفعه دينه فوق الأنساب والاعتزاز بها , فإذا عزته في دينه , وقد أحس بعظمتها حين كان اول من أفشى القرآن بمكة .[1]

ومنذ أسلم بن مسعود اصطفاه النبي ﷺ وقربه إليه قربا خاصا تفرد به من دون سائر الصحابة . فكان يخدم النبي ﷺ , ويدخل إلى فراشه فيرفع الحجاب مأذونا له في ذلك , ويعرف حتى سرَه في بيته , فكان يلج عليه ويلبسه نعله , ويمشي معه وأمامه ويستره إذا اغتسل , ويوقظه إذا نام, وكان يعرف في الصحابة بصاحب السرار والسواك , والسرار هو السر , قال عبد الله بن الإمام أحمد:أذن له أن يسمع سره إذا سار أحدا وكان يرحل الركوبة للنبي ﷺ إذا سافر ويماشيه في الأرض الوحشاء, وقد أخذ عبد الله بهذه الصحبة الطيبة من سمت النبي ﷺ ومن هديه وعلمه ومنطقه حتى أن أبا موسى الأشعري يقول : قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا , وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت النبي ﷺ من كثرة دخولهم عليه ولزومهم له .

وقال تميم بن حزام: جالست أصحاب رسول الله عليه وسلم فما رأيت أحدا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أحب أن أكون في صلاحه من عبد الله ابن مسعود. وقال الحافظ ابن حجر : أسلم قديما , وهاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد بعدها , ولازم النبي ﷺ , وحدث عنه بالكثير .[2]

وقال عبد الرحمن بن يزيد : أتينا حذيفة فقلنا : حدثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ هديا ودلا , فنأخذ عنه ونسمع منه , فقال: كان أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله ﷺ ابن مسعود , حتى يتوارى منا في بيته , ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن ابن أم عبد هو أقربهم إلى الله زلفى .وقال حبة بن

[1] - سير أعلام النبلاء ١ / ٤٦١

[2] - الإصابة / ٤٩٤٥

جويد: كنا جلوسا عند علي فقلنا : مارأينا رجلا أحسن خلقا ولا أرفق تعليمـــا ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعا من ابن مسعود, فقال علي : أنشــدكم الله , أهـــو الصدق من قلوبكم ؟ قالوا : نعم , قال: اللهم اشهد أني أقول مثلما قالوا وأفضل

في معركة الصبر

كان ابن مسعود أول من فشا بالقرآن في مكة وأسمعه سادات قريـــش عنـــد مقام إبراهيم,

و لم يردعه قسوتهم في ضربه يومئذ , فلم يستخف بدينه بعد , وفقد عملــه في الرعي الذي كان يظهر أنه لا يحسن غيره , ووهب نفسه لله ورسوله , مجاهرا بالدين ومتلقيا للعلم , وقارئا للقرآن , ولايفتأ يستقبل به وجوه مكة , حتى أشفق عليـــه النبي ﷺ فأمره بالهجرة إلى الحبشة , فهاجر امتثالا للأمر لا طلبـــا للنجـــاة , ثم لم يلبث أن عاد إلى مكة – بعد أن نال وسام الهجرة الأولى –ولم يسلم من الأذى حين عاد, فأمره النبي صلى الله عليه و وسلم أن يهاجر إلى المدينة , والتأم شمله مرة أخرى مع سيده وحبيبه ومعلمه وعاد مرة أخرى يمسك بالعصا ويمشى أمام النبي ﷺ حـــتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه وأدخلهما ابن مسعود في ذراعيه وأعطاه عصـــاه فجعلـــها أمامه حتى يدخل حجرته قبله , ولم يزده تعبه في خدمة النبي ﷺ إلا قوة في نفســـه وقلبه وعزيمته , قوة تجاوزت حدود الجسد الضئيل , والقدمين الدقيقتين

ذات يوم كان النبي ﷺ مع بعض أصحابه تحت شجرة أراك , فـــأمر ابـــن مسعود أن يصعد على الشجرة ليجتنى له سواكا, فنظر أصحـــاب النـــبي ﷺ إلى ساقي عبد الله وضحكوا , فسألهم النبي ﷺ عما يضحكهم, فقالوا نعجب من دقـــة ساقي ابن ام عبد, فقال لهم النبي ﷺ : مم تضحكون ؟ لرجل عبـــد الله أثقـــل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد .[١]

وإذا كانت النفوس كبارا حارت في مرادها الأجساد .

[١] – مسند الإمام أحمد ٣ / ١٥٠

أما بدر وكانت أهم حدث في معركة الصبر , مر عبد الله بن مسعود بـأبي جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى , وقد قال لهم رسول الله ﷺ : انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته , فإني ازدحمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله بن جدعان , ونحن غلامان , وكنت أشف منه بيسير , فدفعته فوقع على ركبتيه فجحش في إحداهما جحشا لم يزل أثره قال ابن مسعود : فوجدته فعرفته , فوضعت رجلي على عنقه , وكان قد ضبن إلي بمكة _أى قبض على ولزمني _ فآذاني ولكزني , ثم قلت له هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال: وبم أخزاني ؟ هل أعمد من رجل قتلتموه ؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم قلت :لله ورسوله فقال: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم

فقلت :رويعي غنم , ولكن الله أعزني وأذلك

(وفى الصحيحين أن ابن مسعود وجد أبا جهل وقد ضربه ابنا عفراء حتى برد, فاخذ بلحيته وهو يقول أنت أبو جهل عدو الله . وفى قول ابن مسعود : انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع , وعليه بيضته , ومعه سيف جيد ومعي سيف ردئ , فجعلت أنقف رأسه بسيفي , وأذكر نقفا كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده, فأخذت سيفه , فرفع رأسه فقال: على من كانت الدائرة , لنا أم علينا؟ ألست رويعينا بمكة , ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ , فقلت : قتلت أبا جهل , فقال : الله الذي لا اله إلا هو , فرددها ثلاثا , فقلت الله الذي لا اله إلا هو , فخرج يمشى معي حتى قام عليه فقال: الله اكبر و الحمد لله الذي صدق وعده , ونصر عبده , وهزم الأحزاب وحده , ثم قال : انطلق فأرنيه , فانطلقت فأريته, فقال : هذا فرعون هذه الأمة ، وصلى ركعتين للبشارة بقتل عدو الله .قال الواقدانى : وقف رسول الله ﷺ على مصرع ابني عفراء , فقال : رحم

الله ابني عفراء , فهما شركاء في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر أبي جهل , فقيل يا رسول الله , ومن قتله معهما؟ قال: الملائكة وابن مسعود قد شرك في قتله [1]

قال ابن عباس ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ هم والله كفار قريش , ومحمد نعمة الله , ودار البوار , هي النار يوم بدر, وقال حسان.

قومي الذين هـــم أووا نبيـــهم	وصدقوه وأهل الأرض كفـــار
إلا حصائص أقوام هم ســـلف	للصالحين من الأنصـــار أنصـــار
مســتبشرين بقسم الله قولهم	لما أتاهم كريم الأصــــل مختـــار
أهلا وسهلا ففي رحب وفي سعة	نعم النبي ونعم القســـم والجـــار
فأنزلوه بـــدار لا يخـــاف بهـــا	من كان جارهم دار هي الـــدار
وقاسموهم بها الأموال إذ قدمـــوا	مهاجرين وقسم الجاحد النـــار
وسرنا وساروا إلى بدر لحينـــهم	لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلاهـــم بغـــرور ثم أســـلمهم	إن الخبيـــث لمـــن والاه غـــرار
وقال اني لكم جـــار فـــأوردهم	شر الموارد فيه الخـــزي والعـــار
ثم التقينا فـــولوا عـــن سراقم	من منحدين ومنهم فرقة غارو [2]

وسمع أهل مكه هاتفا من الجن يقول :

ازار الحنيفيـــون بـــدرا وقيعـــة	سينقص منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالا من لؤي وأبـــرزت	خرائد يضربن الـــترائب حســـرا
فيا ويح من أمسى عدو محمـــد	لقد جار عن قصر الهدى وتحـــيرا

وكان من تمام ما عذب الله تعالى به لا أحياء قريش أنهم ناحوا على قتلاهـــم , ثم قالوا:لا تفعلوا يبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم, ولا تبعثوا في أســـراكم حـــتى تستأنسوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء, فالبكاء على الميت يبل فؤاد الحزين, وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده, زمعة وعقيـــل

[1] -أسد الغابة ٣/ ٢٥٥

[2] - شذرات الذهب ١ / ٣٨

والحارث , وكان يحب أن يبكي على بنيه, فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل , فقال لغلام له – وكان قد ذهب بصره – انظر هل أحل النحيب ؟ هل بكت قريش على قتلاها لعلي أبكي على أبي حكيمة – يعني ولده – فإن جوفي قد احترق, قال: فلما رجع إليه الغلام, قال : إنها امرأة تبكي على بعير لها أضلته, فقال الأسود

أتبكي أن أضل لها بعير	ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن	على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص	ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي إن بكيت أبا عقيل	وبكي حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمي جميعا	وما لأبي حكيمة من نريد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا[1]

وشهد المشاهد كلها بعد بدر بنفسه القوية , وعزيمته التي زادها الدين صلابة فكان من الذين ثبتوا في أحد , وأحد الثمانية الذين إستجابوا لله وللرسول من بعدما أصابهم القرح, وفي الفتح , وفي حنين يقول ابن مسعود: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس, وبقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار , فنكصنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما , و لم نولهم الدبر , وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة[2] , قال :ورسول الله ﷺ على بغلته , فمضى قدما فحادت بغلته , فمال عن السرج ,فقلت: ارتفع رفعك الله , فقال : ناولني كفًا من التراب , فضرب به وجوههم , فامتلأت أعينهم ترابا , ثم قال : أين المهاجرين والأنصار؟ قلت : هم هنا, قال: اهتف بهم , فهتفت بهم , فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب , وولى المشركون أدبارهم . [2]

---

[1] – البداية والنهاية / ٣

[2] – مجمع الزوائد ٩ / ٢٨٦

و لم يتوقف عن الجهاد بعد موت النبي ﷺ , حتى في اليرموك أبلى فاحسن البلاء متجاوزا ضعفه ونحولة جسمه , ومثبتا أن قوة الإيمان تهب القوة والبطولة , وأن من يكون مع الله يكون معه , ويكون الله يده التي يبطش بها , ورجله التي يمشى بها وعينه التي يبصر بها , وانه لا يرمى حين يرمى , ولكن الله هو الذي يسدد رميته .

في رياض القرآن

وزبدة العلم وقاعدته العريضة , وقمته السامقة كتاب الله العزيز, وسنة النبي ﷺ , وعن القرآن الكريم قال ابن مسعود : أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد.

وقال عنه النبي ﷺ : من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد , وقال: رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد .

ومر النبي ﷺ بين أبي بكر وعمر, وكان عبد الله بن مسعود يصلي , فافتتح سورة النساء يسجلها , أي يقرأها قراءة متصلة , فقال رسول الله ﷺ : من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد , ثم سأل في الدعاء , فجعل رسول الله ﷺ يقول : سل تعطه , سل تعطه, فقال فيما قال : اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد , ونعيما لا ينفد , ومرافقة نبيك في أعلى جنة الخلد , فأتى عمر عبد الله ليبشره فوجد أبا بكر خارجا قد سبقه , فقال : إن فعلت إنك لسباق بالخير .[1]

وكان ابن مسعود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كفر بحرف من القران فقد كفر به أجمع , ومن حلف بالقرآن فعليه بكل آية منه يمين .

ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : القرآن شافع مشفع , وماحل مصدق فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة , ومن جعله خلفه قاده إلى النار

[1] - حلية الأولياء ١ / ١٢٩

ويقول ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول : علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى , ومن قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم يصبه فاقة أبدا وقال النبي ﷺ : سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر , جادلت سورة تبارك عن صاحبها حتى أدخلته الجنة .

وقال : تبارك هي المانعة , تمنع بإذن الله من عذاب القبر ,

أتي رجل من قبل رأسه , وقال : لا سبيل لكم علي إنه قد وعى بي سورة الملك , وأتى من قبل رجليه , فقال : وا رجلاه , لا سبيل لكم علي إنه كان يقوم بي بسورة الملك فمتعته بإذن الله من عذاب القبر , وهي في التوراة سورة الملك, من قرأها في ليلة فقد اكثر وأطيب [1].

سئل رسول الله ﷺ عن الأمانة فقال: لا إيمان لمن لا أمانة له , ولا دين لمن لا عهد له , والذي نفس محمد بيده لا يستقيم دين عبد حتى يستقيم لسانه , ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه ,ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه فسال ابن مسعود بين عبد الله بن مسعود وأمير المؤمنين عثمان بن عفان حين جمع عثمان المصاحف ونسخ منها على قراءة واحدة , وكلف بذلك زيد بن ثابت لعدم وجود ابن مسعود حينئذ , وعندما عاد ابن مسعود طلب منه عثمان مصحفه ليحرقه ليقرا الناس على قراءة المصحف الذي تم نسخه حتى لا يختلفوا , فاخفى ابن مسعود مصحفه و لم يظهره يقول فنقلة الجحفى : كنت فزعت فيمن فزع إلى عبد الله في المصاحف حين اخذ منه مصحفه وحمله على الأخذ بالمصحف الإمام الذي أمر بكتابته , فدخلنا عليه , فقال رجل من القوم : إنا لم نأتك زائرين , ولكن جئنا حين راعنا هذا الخبر , فقال ه عليه وسلم : كنتم خير أمة أخرجت للناس , تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر , ثم قال : ما من نبي بعث الله في أمة من قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته , ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف منهم

[1] - حلية الأولياء ١ / ١٣١

من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون , ويفعلون ما لا يؤمرون , فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن , ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن , ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن, ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .[1] فقال الرجل : يا رسول الله إذا رأى امرؤ منكرا لا يستطيع له تغييرا ؟ قال : بحسب امرئ إذا رأى منكرا لا يستطيع له تغييرا أن يعلم الله تعالى أنه له منكر .

بئس القوم قوم يستحلون المحرمات بالشبهات ,

وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر . وقال النبي ﷺ : يكون في آخر الزمان قوم يحضرون السلطان فيحكمون بغير حكم الله , ولا ينهون فعليهم لعنة الله .

ومر ابن مسعود بقوم يخوضون بلغو فاعرض عنهم , فلما دخل المسجد رآه رسول الله ﷺ وهو جالس بين أصحابه فقال : اصبح ابن مسعود وأمسى كريما , ثم تلا قول الله تعالى : وإذا مروا باللغو مروا كراما [2]

وسألت أم عبد ابنها عبدا لله عن قوله تعالى : وآتينا داود زبورا فقال : الزبور كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وإنما هو تحميد لله وتمجيد , فكما آتينا داود زبورا , فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن [3].

وقال ابن مسعود عن قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ الشعراء فقال : حين أسرى موسى عليه السلام ببني إسرائيل بلغ فرعون ذلك , فأمر بشاة فذبحت , وقال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط , فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر , فقال له : انفرق , فقال له البحر قد استكبرت يا موسى , وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فانفرق لك ؟

[1] - حلية الأولياء ١ / ١٣٣

[2] - أسد الغابة ٣ / ٢٥٥

[3] - مسند الإمام أحمد ١ / ٣٧٤

ومع موسى رجل على حصان له – يوشع بن نون – فقال له ذلك الرجـــل :
أين أمرت يا نبي الله ؟
قال ما أمرت إلا بهذا الوجه .
قال : والله ما كذب ولا كذبت ,
ثم اقتحم فسبح ثم خرج , فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟
قال : ما أمرت الا بهذا الوجه ,

قال : والله ما كذب ولا كذبت , ثم اقتحم الثانية فسبح ثم خرج , وفعـــل مثل ذلك في الثالثة , فأوحى أن اضرب بعصاك البحر فضربه موسى بعصاه فانفلق , فكان اثني عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى , وتتـــام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم , وغرق فرعون لعنه الله [1].

وكان ابن مسعود في ركب قادما من سفر , فلقيهم عمر بن الخطاب , وكان الوقت ليلا , ولا يعلم أحدهم صاحبه , فأمر عمر مناديا يناديهم
من أين القوم ؟
فأجابه ابن مسعود : اقبلنا من الفج العميق
قال عمر أين تريدون ؟
قال : البيت العتيق
فقال الفاروق : إن فيهم عالما , ثم أمر مناديه فنادى :
أي القرآن أعظم ؟
فأجاب ابن مسعود : الله لا إله إلا هو الحي القيوم [2]
فقال عمر للرجل : نادهم : أى القرآن أحكم ؟
فقال ابن مسعود : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينـــهى عـــن الفحشاء والمنكر والبغي [1]

[1] – حلية الأولياء ١ / ١٢٤
[2] – البقرة ٢٥٥

فقال عمر : نادهم أي القرآن أجمع ؟

فقال ابن مسعود : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره , ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره[2]

فقال عمر : نادهم : أي القرآن أخوف ؟

قال ابن مسعود : ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب , من يعمل سوء ا يجز به[3]

فقال الفاروق : نادهم أي الكتاب أرجى ؟

قال ابن مسعود : قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا , إنه هو الغفور الرحيم [4]

فقال عمر : نادهم : أفيكم ابن مسعود ؟

قالوا : اللهم نعم .

وحدث شئ من العتاب بين عبد الله بن مسعود وأمير المؤمنين عثمان بن عفان حين جمع عثمان المصاحف ونسخ منها على قراءة واحدة , وكلف بذلك زيد بن ثابت لعدم وجود ابن مسعود حينئذ , وعندما عاد ابن مسعود طلب منه عثمان مصحفه ليحرقه ليقرأ الناس على قراءة المصحف الذي تم نسخه حتى لا يختلفوا , فاخفى ابن مسعود مصحفه ولم يظهره . يقول فنقله الجحفي : كنت فزعت فيمن فزع إلى عبد الله في المصاحف حين أخذ منه مصحفه وحمله على الأخذ بالمصحف الإمام الذي أمر بكتابته , فدخلنا عليه , فقال رجل من القوم : إنا لم نأتك زائرين , ولكن جئنا حين راعنا هذا الخبر , فقال : ان القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف أو حروف وإن الكتاب قبلكم كان يترل من باب واحد , على حرف واحد , معناها واحد , قال : ثم أمرنا بتقوى الله وأن لا نختلف في القرآن ولا نتنازع فيه , فإنه لا يختلف , ولا , ينسى , ولا ينفد لكثرة الرد , أفلا

---

[1] – النحل / ٩٠

[2] – الزلزلة / ٨ ، ٩

[3] – النساء / ١٢٣

[4] – الزمر / ٢٣

ترون أن شريعة الإسلام فيه واحدة , حدودها وفرائضها وأمر الله فيها , ولو كـــان شئ من الحرفين يأتي بشئ ينهى عنه الآخر كان ذلك الاختلاف , ولكنه جـــامع لذلك كله , وإني لأرجو أن يكون قد أصبح فيكم اليوم من الفقه والعلم من خير ما في الناس , ولو أعلم أحدا تبلغنيه الإبل هو أعلم بما أنزل على محمد ﷺ لقصدتـــه حتى ازداد علما إلى علمي, فقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يعرض عليه القــرآن كل عام مرة , فعرض عام توفي فيه مرتين , فكنت إذا قرأت عليه أخبرني أني محسن, فمن قرأ على قراءتي فلا يدعها رغبة عنها , ومن قرأ على شئ من هذه الحروف فلا يدعه رغبة عنه , وإن من جحد بحرف منه جحد به كله .[1]

ولما أراد عبد الله أن يرجع إلى المدينة من الكوفة جمع أصحابه فقال : والله إنني لا أرجو أن يكون قد أصبح فيكم من أفضل ما أصبح في أجناد المسلمين من الديـــن والفقه والعلم بالقرآن , إن هذا القرآن أنزل على سبعة حـــروف , والله إن كـــان الرجلان ليختصمان أشد ما اختصما في شئ قط, فإذا قال القارئ : هذا أقـــرأني , قال : أحسنت , وإذا قال الآخر: هذا أقرأني ، قال.: كلاكما محسن , فأقرأنـــا ان الصدق يهدى إلى البر , وإن البر يهدي إلى الجنة , والكذب يهدي إلى الفجـــور , والفجور يهدى إلى النار , واعتبروا ذاك بقول أحدكم لصاحبه : كذب وفجـــر , وبقوله إذا صدق : صدقت وبررت , ان هذا القران لا يختلف , ولا يستشـــن – لا يخلق – ولا ينفذ لكثرة الرد , فمن قرأه على حرف فلا يتركه رغبة عنه , ومن قرأه على شئ من تلك الحروف التي علم رسول الله ﷺ فلا يدعه رغبة عنه , فإنه مـــن يجحد بآية منه يجحد به كله , فإنما هو كقول أحدكم لصاحبه : اعجل وحيـــهلا , والله لو أعلم رجلا أعلم بما أنزل الله على محمد ﷺ مني لطلبته ,حتى ازداد علمـــه إلى علمي[2].

[1] – حلية الأولياء ١ / ١٢٦

[2] – الإصابة / ٤٩٤٥

إنه سيكون قوم يميتون الصلاة , فصلوا الصلاة لوقتها واجعلوا أصلابكم معكم تطوعا وإن رسول الله ﷺ كان يعارض بالقرآن في كل رمضان , وإني عرضت عليه في العام الذي قبض مرتين , فأنباني إني محسن , وقد قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد

وسال ابن عباس : أي القراءتين تعدون أول ؟

قالوا : قراءة عبد الله , قال : لا : إن رسول الله ﷺ كان يعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة , إلا العام الذي قبض فيه فإنه عرض عليه مرتين بحضرة عبد الله , فشهد ما نسخ منه وما بدل , وإنما شق على ابن مسعود أنه عدل عنه مع فضله وسنه, وفوض ذلك إلى من هو بمنزلة ابنه وإنما ولى عثمان زيد بن ثابت لحضوره وغيبة عبد الله , ولأنه كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ , وكتب المصحف في عهد أبي بكر الصديق

وقال ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم أين أنزلت , ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت , ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني لركبت اليه.

أما صفات حامل القرآن التي كان يتمثلها ابن مسعود ويعشها فقد وصفها بقوله : ينبغي لحامل القران أن يعرف بليله إذا الناس نائمون , وبنهاره إذا الناس يفطرون , وبحزنه إذا الناس يفرحون , وبكائه إذا الناس يضحكون , وبصمته إذا الناس يخلطون , وبخشوعه إذا الناس يختالون , وينبغي لحامل القران أن لا يكون جافيا , ولا غافلا , ولا صخابا , ولا صياحا ولا حديدا .

وقال : إن استطعت أن تكون أنت المحدث , وإذا سمعت الله تعالى يقول : يأيها الذين آمنوا ... فارعها سمعك , فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه .[1]

[1] - حلية الأولياء ١ / ١٣٧

وقال : إن هذا القران مأدبة الله , فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعـــل , فان أصفر البيوت من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شئ , وإن البيــت الــذي ليس فيه من كتاب الله شئ كخراب البيت الذي لا عامر له , وإن الشيطان يخــرج من البيت الذي تسمع فيه سورة البقرة ٠ وكان يقول : إنما هذه القلــوب أوعيــة فاشغلوها بالقرآن , ولا تشغلوها بغيره ٠

تحرير الخلاف

بعد أن اتسعت رقعة الإسلام , ودخل الناس في دين الله أفواجــا , وتفــرق القراء في الأمصار المختلفة ليعلموا الناس القرآن الكريم , فقد اختلف الناس حــول القراءات واشتد الخلاف بينهم , و لم يدرك الناس , إدراكا تاما أن القرآن نزل علــى سبعة أحرف وأن الرسول ﷺ سمح أن يقرأ كلام الله بأشكال مختلفة لا تنقص شــيئا من ألفاظه , ولا تضيع شيئا من معانيه , ولا تقلل شيئا من إعجازه ٠

وكان طبيعيا – وقد اشتد الخلاف – أن يتدخل ولى الأمر , وعندما استشــار أصحاب النبي ﷺ , فقد رأوا أن يكتب المصحف على قراءة واحدة تكــون هــي الرسمية وأن تجمع المصاحف المغايرة له وتحرق , فأمر الخليفة عثمان زيد بنثـابت أن يقوم بهذا الأمر لأنه أحد الذين قرأوا القرآن مع النبي ﷺ وكان من كتابه , وكــان ابن مسعود في الكوفة , وله قراءته , ولكنه كان من هذيل فلم يكن قرشيا , لهذيــن السببين لم يستعن به عثمان فى كتابة المصحف , وطلب منه أن يســلم مصحفــه ليحرق , فرفض وطلب من أصحابه أن يغلوا مصاحفهم – أى يخفوها ولا يسلموها لعثمان رضى الله عنه واستشهد بالآية الكريمة , ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامــة , فتأتون بالمصاحف ٠

وقال : لما نزلت آية ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنــاح ﴾ قال النبي ﷺ لابن مسعود : قيل لي أنت منهم ٠

وقال : ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيم نزلت ٠

وقال : لقد قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة , وان زيدا له ذؤابة يلعب مع الغلمان .

وقال لعثمان : كيف تأمروني أن أقرأ ؟ لقد قرأت على رسول الله ﷺ سبعين سورة , ولقد علم أصحاب محمد أني أعلمهم بكتاب الله , ولو أعلم أحدا بكتاب الله مني لرحلت إليه .

فلم يكذبه أحد في قوله لكن الخليفة يأمره أن يقرأ ويقرئ الناس على قراءة زيد بن ثابت المثبتة في المصحف الذي وزعت نسخة على البلاد المختلفة , وأمر الناس أن يقرءوا عليه , فيعتصم برأيه في الرفض ويقول : كيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بعدما قرأت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة , وإن زيدا مع الغلمان له ذؤابتان .

قال النووي في شرح مسلم : معناه إن ابن مسعود كان مصحفه يخالف مصحف الجماعة , وكانت مصاحف أصحابه كمصحفه وطلب منه أن تكون قراءته موافقة مصحف الجمهور , وطلبوا مصحفه أن يحرقوه كما فعلوا بغيره فلمتنع وقال لأصحابه : غلوا مصاحفكم : -أى اكتموها - ﴿ **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة** ﴾ يعنى فإذا غللتموها جئتم بها يوم القيامة , وكفى بكم بذلك شرفا , ثم قال على سبيل الإنكار : من هو الذي تأمروني أن آخذ بقراءته مصحفي , الذي أخذته من في رسول الله ﷺ .[1]

وقال القرطبي : لما رأى عثمان حرق المصاحف ما عدا المصحف الذي بعث نسخته إلى الآفاق , ووافقه على ذلك الصحابة لما رأوا من أن بقاها يدخل اللبس والاختلاف في القرآن , ذكر ابن مسعود الغلول , وتلا الآية ثم قال : إني غال مصحفي , فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل , على قراءة من تأمروني أقرأ؟ على قراءة زيد , لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة ,

[1] صحيح مسلم بشرح النووي

وزيد له ذؤابتان يلعب مع الغلمان , ومعنى قوله : غلوا مصاحفكم , أي اكتموهـــا ولا تسلموها والتزموها إلى أن تلقوا الله بها , كما يفعل من غل شيئا فانه يأتي به يوم القيامة يحمله , وكان هذا منه رأيا انفراديا, انفرد به عن الصحابـــة , فإنـــه كتـــم مصحفه و لم يستطع عثمان ولا غيره من الصحابة على أن يجعله يظهره , وانتشـــرت المصاحف التي كتب بها عثمان إلى الآفاق , ووافقه عليها الصحابة , وقرأ المسلمون عليها , وترك مصحف عبد الله وخفي , إلى أن وجد في خزائن بني عبيد في مصـــر عند انقراض دولتهم , وابتداء دولة الغز , فأمر صدر الدين بـــن جماعـــة قـــاضي الجماعة بإحراقه .

ويستطرد القرطبي : وقوله : على قراءة من تأمروني أقرأ , قاله إنكارا على من أمره بترك قراءته ورجوعه إلى قراءة زيد , مع أنه سابق له إلى حفظ القـــران , وإلى أخذه عن رسول الله ﷺ , فصعب عليه أن يقرأ قراءة أخذها عـــن رســـول الله ﷺ وقرأها عليه , ويقرأ بقراءة زيد أو غيره , وتمسك بمصحفه وقراءته , وخفي عليـــه الوجه الذي ظهر لجميع الصحابة من المصلحة التي هي من أعظم ما حفظ الله بـــه القرآن عن الاختلاف المخل به , والتغيير بالزيادة والنقص , وكان من أعظم الأمـــور على عبد الله أن الصحابة لما عزموا على كتب المصحف بلغة قريش عينـــوا لذلـــك أربعة , لم يكن ابن مسعود منهم , وكتبوه على لغة قريش , و لم يعرجوا على ابـــن مسعود لأنه كان هذليا , وكانت قراءته على لغتهم , وبينها وبين لغة قريش تبـــاين عظيم , فلذلك لم يدخلوه معهم

وقال المحدث أحمد شاكر: وكان هذا من ابن مسعود حين أمر عثمان بجمـــع الناس على المصحف الإمام خشية اختلافهم , فغضب ابن مسعود , وهـــذا رأيـــه ولكنه رضى الله عنه أخطا خطأ شديدا فى تأويل الآية على ما أول , فإن الغلول هـــو الخيانة, والآية واضحة المعنى في الوعيد لمن خان او اختلس من المغانم .[1]

[1] – شرح الترمذي

وقال ابن العربي – بعد إيراده هذا الحديث – هذا مما لا يلتفت إليه بشيء, إنما المعول عليه ما في المصحف , فلا تجوز مخالفته لأحد , ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطة مما يثبت ضبطه , فان القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلا , وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم وينقطع معه الغدر , وتقوم به الحجة على الخلق [1] .

وقال أبو بكر الإنباري , بعد إيراده هذا الحديث وحديث (إني أنا الرازق ذو القوة المتين , قال : كل من هذين الحديثين مردود بخلاف الإجماع له , وإن حمزة وعاصما يرويان عن ابن مسعود ما عليه جماعة المسلمين , والبناء على سندين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالف الإجماع والأمة , وما يبني على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه أخذ برواية الجماعة وأبطل نقل الواحد لما يجوز عليه من النسيان والإغفال , ولو صح الحديث عن أبي الدرداء , وكان إسناده مقبولا معروفا , ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه , لكان الحكم العمل بما روته الجماعة , ورفض ما يحكمه الواحد المنفرد الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة , وجميع أهل الملة .

بعدما نقلناه من آراء العلماء حول موقف بن مسعود من المصحف الإمام وموقف الخليفة من مصحفه تخلص إلى هذه النتائج .

– ابن مسعود أحد القراء الذين ينتهي إليهم تواتر القراءة عن النبي ﷺ , وقدره بين القراء معروف بشهادة النبي ﷺ وثنائه المتكرر عليه ودعوته الناس للأخذ منه , فقد سمر النبي ﷺ ومعه عمر عند ابى بكر ثم سمعوا قرآنا بالليل , فقال النبي ﷺ من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد , ثم قال : سل تعطه , فاجذ في الدعاء وقال : اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيما لا ينفد , ومرافقة نبيك في أعلى جنان الخلد .وطلب منه النبي ﷺ أن يقرا عليه القرآن , فقرأ من سورة النساء .

[1] – العواصم من القواصم

- كان أصحاب النبي ﷺ يعلمون حفظ وضبط قراءة ابن مسعود ويقدرونها, فقد جاء قيس بن مروان من الكوفة إلى المدينة فلما أتى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين قال : جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة , وتركت بها رجلا يملى المصاحف عن ظهر قلب , فغضب عمر وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرحل, فقال : ويحك ومن هو ؟ فقال : ابن مسعود , فما زال عمر يطفئ من غضبه ويتسرى عنه حتى عاد إلى رحاله , ثم قال : ويحك , والله ما أعلم بقى من الناس من هو أحق بذلك منه .

غضب ابن مسعود حين ظن عدم انتدابه لتدوين المصحف تجاهلا من أمير المؤمنين عثمان بن عفان , ولكن العلماء يرون أن عثمان رضى الله عنه في هذه الخصوصية لأحوال البلاد المفتوحة في هذا الوقت القصير , وزيادة عدد المسلمين وشدة الحرص على قراءة القرآن الكريم , وحدوث الخلافات بسبب أحرف القراءة فإن مواصفات وشرائط معينة لابد أن تراعى في المصحف الإمام , منها أن تكون القراءة قرشية وأن تكون مجمعا عليها , فكان زيد بن ثابت من يستطيع القيام بهذه المهمة بإجماع مجلس شورى عثمان وهم كبار الصحابة , بالإضافة إلى انفراد مصحف عبد الله بقراءة آيات ليست هذه القراءة موجودة فى المصاحف الأخرى مثل إن الله هو الرازق , ومع الثقة في ضبط وحفظ وأخذ عبد الله عن النبي ﷺ غير أن المتواتر أولى بالأخذ بها عن الرواية المفردة , ولم يشفع لهذه القراءة أنها قراءة ابن مسعود الذي قرأ القرآن غضا , ويعرف أين نزلت , وما اشتملت عليه من أحكام كل آية نزلت من الكتاب العزيز , لأن القاعدة هي تواتر الرواية , وما شهد به الجمع من الثقاة أولى مما تفرد به الثقة .

رفض ابن مسعود تسليم مصحفه مثلما سلم القراء الآخرون مصاحفهم لتحرق حتى تجتمع الأمة على قراءة واحدة , ونسب ابن مسعود القراءة لزيد بن ثابت وتجاهل الإجماع عليها , ورأى - اعتزازا منه بقدم الصحبة وشهادة النبي ﷺ أن قراءته أليق به وبمن يعلمهم فطلب منهم أن يغلوا مصاحفهم كذلك أي يخفوها ,

وقام معه جماعة من المسلمين , وعارضه آخرون فقام خطيبا ليمنع فتنة توشك أن تشتعل جذوتها , فأعلن تمسكه بقراءته لأنه أخذها عن النبي ﷺ , وأما القراءة الأخرى فهي صحيحة كذلك , وطلب ممن قرأ عليه أن يحتفظ بقراءته , ومن قرأ على حرف آخر صحيح أن يلزم هذا الحرف الصحيح , فإن القرآن نزل على سبعة أحرف , ثم تأول آية الغلول للمصاحف و لم يقرَه المفسرون على هذا التأويل , لأنها تشير إلى من الغلول من المغانم خيانة فحتى لو كان المغلول مصحفا فإنه يأتي يوم القيامة لتكون سببا في عقوبة الغال لا في نجاته .

ليست هذه هي المرة الأولى التي يختلف فيها ابن مسعود مع أمير المؤمنين عثمان , وذلك لاختلاف الشخصيتين والمشربين , والاجتهادين , فابن مسعود متبع اتباعا نصيا , وعثمان لا يرى بأسا في إعمال العقل لفهم النص , وقد تزوج عثمان رضى الله عنه بعد أن تولى الخلافة , واتخذ دارا بمكة للأهل التي استحدثها , وفى الحج لم يجمع عثمان في منى بين الصلوات , و لم يقصر ليلة التروية , و لم يكن ابن مسعود حاضرا , فغضب غضبا شديدا عندما علم بما فعل عثمان , ثم قام فصلى أربعا , فحدثوه في ذلك وقالوا عبت عليه وفعلت مثله , فقال ابن مسعود الحكيم : الفتنة شر من ذلك .

وننهي هذا الفصل برواية نذكر بها مرة أخرى لأنها تبين قدر

ابن مسعود عند النبي ﷺ , وتشير إلى حسن ضبطه وتلاوته , قال ابن مسعود : قال لي رسول الله ﷺ : اقرأ علي , فقلت : كيف أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري , قال : فقرأت عليه سورة النساء ,حتى إذا بلغت : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا [1] , فقال لي حسبك , فنظرت إليه , وقد اغرورقت عينا النبي ﷺ , وقال : من سره أن يقرأ القرآن غضا كما نزل , فليقرأه قراءة ابن أم عبد.

[1] - النساء / ٤١

ى مدينة العلم

تضافر الإسلام والفطرة النقية , وملازمة النبي ﷺ , والتقوى , وخشـــية الله عز وجل فى جعل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كما وصفه عمر بن الخطـــاب بأنه (كنيف ملئ علما) فقد روى عن النبي ﷺ ما يقترب من ألـــف حديـــث , وروى علما غزيرا وحدث عنه من كبار الصحابة أبو موسى وأبو هريــــرة, وابـــن عباس وابن عمر وجابر وأنس وغيرهم كثير .

يقول زيد بن وهب : كنت جالسا مع حذيفة وأبي موسى الأشـــعري - في بيت ابن مسعود - فقال أحدهما لصاحبه : هل سمعـــت رســـول الله ﷺ يقـــول حديث كذا وكذا ؟ فقال: لا , فقال له الآخر : فأنت سمعتــــه ؟ فقـــال: لا, وأن صاحب هذه الدار يزعم أنه سمعه , فقال أبو موسى لئن فعل ان كـــان ليدخـــل ان حجبنا و يشهد إذا غبنا .

روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ ما من شأنه أن يـــربى المســـلم التربيـــة الإيمانية التي تشهده إلى أخيه المسلم برباط وثيق , وتشده بحبل الله تعالى شدّا يدفعـــه إلى الجنة دفعا حثيثا .

سئل النبي ﷺ عن الأمانة فقال : لا إيمان لمن لا أمانة له ,

ولا دين لمن لا عهد له , والذي نفس محمد بيده لا يستقيم دين عبـــد حـــتى يستقيم لسانه , ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه , ولا يدخل الجنة من لا يـــأمن جاره بوائقه .

فسأل ابن مسعود : يا رسول الله , ما البوائق ؟

قال : غشه وظلمه , وأيما رجل أصاب مالا من غير حله , وأنفق منه لم يبارك لـــه فيه وإن تصدق لم تقبل منه , وما بقى فزاده الى النار , إن الخبيث لا يكفر الخبيث , ولكن الطيب يكفر الخبيث ,

وحث النبي ﷺ أصحابه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال : ما مـــن نبي بعث الله في أمة من قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحــــاب يـــأخذون

سنته , ويقتدون بأمره , ثم إنها تتخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون , ويفعلون ما لا يأمرون , فمن جاهد هم بيده فهو مؤمن , ومن جاهد هم بلسانه فهو مؤمن , ومن جاهد هم بقلبه فهو مؤمن , ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

فقال رجل : يا رسول الله , إذا رأى امرؤ منكرا لا يستطيع له تغييرا ؟

قال : بحسب امرئ إذا رأى منكرا لا يستطيع له تغييرا أن يعلم الله تعالى أنه له منكر

ثم قال : بئس القوم قوم يستحلون المحرمات بالشبهات , وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر , ويكون في آخر الزمان قوم يحضرون السلطان فيحكمون بغير حكم الله , ولا ينهونه فعليهم لعنة الله .

بينما كان ابن مسعود جالسا مع النبي ﷺ أقبل راكب حتى أناخ , فقال : يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع , أنضيت راحلتي , وأسهرت ليلتي , وأظمأت نهاري لأسألك عن خصلتين أسهرتاني .

فقال النبي ﷺ : ما اسمك ؟

قال : زيد الخيل .

فقال النبي ﷺ : بل أنت زيد الخير , فاسأل , فرب مفضلة قد سئل عنها .

قال زيد الخير , أسألك عن علامة الله فيمن يريده , وعلامته فيمن لا يريده .

فسأله النبي ﷺ : كيف أصبحت ,

قال : أصبحت أحب الخير وأهله , ومن يعمل به , وإن عملت به أيقنت بثوابه , وإن فاتني منه شيء حننت إليه .

فقال النبي ﷺ : هذه علامة الله فيمن يريده , وعلامته فيمن لا يريده , ولو أرادك بالأخرى هيأك لها , ثم لا يبالي في أي واد هلكت .

قال رجل : يا رسول الله , متى أكون محسنا ؟

قال : إذا أثنى عليك جيرانك بأنك محسن فأنت محسن .

قال : ومتى أكون مسيئا ؟

قال : إذا أثنى عليك جيرانك بأنك مسيء فأنت مسيئ.

ويروى عبد الله بن مسعود صفة هذه الأمة ونبيها كما سمعها النبي ﷺ : صفتي أحمد المتوكل , ليس بفظ ولا غليظ , يجزى بالحسنة الحسنة , ولا يكافئ بالسيئة مولده بمكة , ومها جره طيبة , وأمته الحمادون , يأتزرون على أنصافهم ويوضئون أطرافهم , أناجيلهم في صدورهم , يصفون للصلاة كما يصفون للقتال , قربانهم الذي يتقربون به إلى ربهم دماؤهم , رهبان بالليل ليوث بالنهار .

وسئل النبي ﷺ : هل يولد العبد مؤمنا ؟

قال : خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمنا , وخلق فرعون في بطن أمه كافرا . خلق الله الناس على طبقات شتى , منهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا , ويموت مؤمنا منهم يحيى بن زكريا , ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا , منهم فرعون ذو الأوتاد.

وقال : عليكم بالسمع والطاعة في ما أحببتم وكرهتم , ألا إن السامع المطيع لا حجة عليه , وإن السامع العاصي لا حجة له , ألا عليكم بحسن الظن بالله , فإن الله تعالى معط كل عبد بحسن ظنه وزيادة عليه .

قال : إنها ستكون أمراء يميتون الصلاة ويخفونها إلى شرق - أخر النهار - وإنها صلاة الموتى , وصلاة من هو شر من حمار , وصلاة من لا يجد بدا , فمن أدرك منكم ذلك الزمان فليصل الصلاة لوقتها , واجعلوا صلاتكم معهم سبحة

ويقول : على كل مسلم فى كل يوم صدقة , فقال أبن مسعود , ومن يطيق ذلك يا رسول الله .؟

قال : السلام على المسلم صدقة , وعيادتك المريض صدقة , وصلاتك على الجنازة صدقة , وإماطتك الأذى عن الطريق صدقة , وعونك الضعيف صدقة.

ثم قال ﷺ : الأيدي ثلاثة : فيد الله , ويد المعطى التي تليها , ويد السائل أسفل إلى يوم القيامة , فاستعفوا عن السؤال ما استطعتم , ومن أعطاه الله خيرا فلير

عليه وأبدأ بمن تعول , وارتضخ من الفضل ولا تلام علـــى كفــاف , ولا تعجــز عن نفسك .

وجاء سائل فناوله رجل درهما , فأخذه رجل وناوله إياه , فقــال النــبي ﷺ من فعل هذا كان له مثل أجر المعطى من غير أن ينقص من أجره شيئ.

وعن الصلوات يروى أبن مسعود عن النبي ﷺ ما لا يترك حجة للناس قال : هل تدرون ما يقول ربكم ؟

قالوا : ماذا يقول رب العالمين ؟

قال : إن ربكم يقول: من صلى الصلاة لوقتها , وحــافظ عليــها , و لم يضيعــها استخفافا بحقها , فله علي عهد أن أدخله الجنة , ومن لم يصلها لوقتها و لم يحــافظ عليها استخفافا فلا عهد له علي إن شئت عذبته , وإن شئت غفرت له

ويقول : قال ربكم : وعزتي و جلالي لا يصليها عبد لوقتها إلا أدخلته الجنة , ومن صلاها لغير وقتها إن شئت رحمته , وإن شئت عذبته.

ويقول : تحترقون تحترقون , فإذا صليتم الفجر غسلتها الصلاة , ثم تحــترقون وتحترقون , فإذا صليتم الظهر غسلتها , ثم تحترقون وتحترقون , فإذا صليتم العصــر غسلتها , ثم تحترقون وتحترقون , فإذا صليتم المغرب غسلتها , ثم تحترقون وتحــترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها , ثم تنامون فلا يكتب لكم حتى تستيقظوا .

ويقول : يا بني آدم قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفســكم فيقومــون فيتطهرون فتسقط خطاياهم من أعينهم , ويصلون فيغفر لهم ما بينهم , ثم يوقــدون فيما بين ذلك , فإذا كان عند صلاة الأولى نادى : يا بني آدم قوموا فــأطفئوا مــا أوقدتم على أنفسكم فيقومون فيتطهرون ويصلون فيغفر لهم ما بينهما , فإذا حضرت العصر فمثل ذلك , فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك , فإذا حضرت العشاء العتمة - فمثل ذلك , فينامون وقد غفر لهم , فمدلج دلج , سار من أول الليــل في خــير , ومدلج في شر .

ويقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمـــام المتقين ,وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك , وإمام الخير , وقائد الخـــير , رســـول الرحمة , اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون , اللهم صلى علـــى محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد , اللهم بارك علـــى محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم , إنك حميد مجيد .

عن الحياء يروى أبن مسعود عن النبي ﷺ قال : استحيوا من الله حق الحيـــاء فإن الله تعالى قسم بينكم أرزاقكم . قال : استحيوا من الله تعالى حق الحياء , مـــن استحيا من الله تعالى حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى , وليحفظ البطـــن ومـــا حوى , وليذكر الموت والبلى , ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا

فمن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء . وقال : إن الحياء من شـــرائع الإسلام , وإن البذاء من لؤم المرء .

ومر ﷺ برجل من الأنصار يعظ أخاه فى الحياء كأنما يلومه فقال له النـــبي ﷺ: دعه فإن الحياء من الإيمان .

وعن آداب المسلم وصفاته , وما يرفع درجاته روى ابن مسعود عن النـــبي ﷺ يقول : إن الله تعالى يغار للمسلم فليغر .

وقال :لا أحد أغير من الله , ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطـــن , ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى , لذلك مدح نفسه , ولا أحد أحب إليـــه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل .

وقال : إن الغيرة من الإيمان , وإن البذاء من النفاق .

ويقول : إن الصدق يهدي إلى البر يهدي إلى الجنة , وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا , وإن الكذب يهدي إلى الفجور , وإن الفجور يـــهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

قال لأم سليم وهى مريضة : يا أم سليم : أتعرفين النار والحديد وخبث الحديد , فأبشري يا أم سليم , فإنك إن تخلصي من وجعك هذا تخلصي من الذنوب كما يخلص الحديد من خبثه .

وقال : لا يمرض مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة , إلا حط الله تعالى خطاياه , والذي نفس بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به خطاياه كما تحط الشجرة ورقها .

ويقول : عجبت للمؤمن وجذعه من السقم , ولو يعلم ماله في السقم أحب أن يكون سقيما حتى يلقى الله عز وجل : ويقول: عجبت لملكين من الملائكة نزلا إلى الأرض يلتمسان عبدا في مصلاه فلم يجداه ,ثم عرجا إلى ربهما فقالا : يا رب كنا نكتب لعبدك المؤمن في يومه وليلته من العمل كذا أو كذا , فوجدناه قد حبسته حبالتك , حبسه المرض , فلم نكتب له شيئا , فقال عز وجل : اكتبا لعبدي عمله فى يومه وليلته , ولا تنقصا من عمله شيئا على آخرما حبسته , وله أجر ما كان يعمل .

وعن التعلق بالدنيا والانخداع بها يروى أبن مسعود عن النبي ﷺ . أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم وهما مهلكا كم .

وقال : من أشرب قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث : شقاء لا ينفد عناه , وحرص لا يبلغ غناه , وأمل لا يبلغ منتهاه , فالدنيا طالبة ومطلوبة , فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى تأتيه الآخرة فيأخذها , ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفى منها رزقه .

ويقول : أنتم بعدى إذا شبعتم من الطعام وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ,

قالوا : رغبة عن الكعبة ؟

فقال النبي ﷺ : لا بل لكن من فضل غنى تجدونه .

قالوا : نحن خير يومئذ .

قال : لا, بل أنتم اليوم أفضل , من جعل الهموم هما واحدا هو هم الميعاد كفـاه الله سائر همومه , ومن تشعبت به الهموم مـن أحـوال الآخـرة لم يبـال الله في أي أوديتها هلك .

وقال : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما ولاه , وعالما ومتعلما .

وقال : الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكر الله.

قال : الدنيا دار من لا دار له , ومال من لا مال له , ولها يجمع من لا عقل له .

وقال : أكبر الكبائر حب الدنيا .

ويقول: الدنيا حلوة خضرة , فمن أخذها بحقها بورك له فيها ,

ورب متخوص فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النـار . ومعـنى هـذا الحديث أن الإنسان قد يكون فقيرا في الدنيا مثل من يبيع الخوص ولكن قلبه معلـق بها يشتهيها ويريدها لنفسه , فلم يصب في الدنيا غنى ولا له في الجنة نصيب

وقال : أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم ؟

قالوا : ومن أبو ضمضم يا رسول الله ؟

قال : رجل ممن كان قبلكم كان إذا أصبح يقول : اللهم إني تصدقت اليوم بعرضـي على من ظلمني .

ومر عبد الله بن مسعود بقوم يخوضون بلغو فأعرض عنـهم , فلمـا دخـل المسجد رآه النبي ﷺ وهو جالس بين أصحابه , فقال : أصبح ابن مسعود وأمسـى كريما ، ثم تلا قوله تعالى : وإذا مروا باللغو مروا كراما [1]

عن رحمة الله الواسعة يروى ابن مسعود عن النبي ﷺ فيقول : جاء رجل مـن نجد إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس يسمع دوي صوته , ولم نفقه ما يقول , فلما دنـا من النبي ﷺ إذا هو يسأل :

حدثني عن الإسلام .

[1] - الفرقان / ٧٢

فقال النبي ﷺ : خمس صلوات في اليوم والليلة .

قال الرجل النجدي : هل عليّ غيرهن ؟

قال : لا, إلا أن تطوع .

فتساءل النجدي , ثم أي؟ .

فقال النبي ﷺ : وصيام رمضان .

قال النجدي : هل علي غيره ؟

قال : لا , إلا أن تطوع .

قال : ثم أي ؟

قال : والزكاة .

قال : وهل عليّ غيرها ؟

قال : لا إلا أن تطوع .

فأدبر الرجل النجدي وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه .

فقال النبي ﷺ : أفلح إن صدق .

ويقول ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما هما اثنتان , الكلام والهدى , فأحسن الكلام كلام الله , وأحسن الهدى هدى محمد , ألا وإياكم ومحدثات الأمور , فإن شر الأمور محدثاتها , وكل محدثة بدعة ضلالة , ألا لا يطول عليكم الأمر فتقسو قلوبكم , ألا ما هو آت قريب , وإنما البعيد ما ليس بآت , ألا إنما الشقي من شقي في بطن أمه , والسعيد من وعظ بغيره , ألا إن قتال المؤمن كفر , وسبابه فسوق , ولا يحل المسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث , ألا وإياكم والكذب , فإن الكذب لا يصلح بالجد ولا بالهزل , ولا يعد الرجل صبيه ثم لا يفي له ,فإن الكذب يهدي إلى الفجور , وإن الفجور يهدي إلى النار , وإن الصدق يهدي إلى البر , وإن البر يهدي إلى الجنة , وإنه يقال للصادق : صدق وبّر , ويقال للكاذب : كذب وفجر , ألا وإن العبد ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله . ما الكبائر ؟

قال : الإشراك بالله .

فقال الإعرابي : ثم ماذا ؟

قال : عقوق الوالدين .

قال : ثم ماذا ؟

قال : اليمين الغموس .

فقال ابن مسعود : وما اليمين الغموس ؟

قال النبي ﷺ : من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه , فقد أوجب له الله له النار وحرم عليه الجنة .

فقال رجل : وإن كان يسيرا ؟

فقال النبي ﷺ : وإن كان قصبا - أو عودا - من أراك .

ثم قال النبي ﷺ : من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر , لقي الله وهو عليه غضبان .

ويقول ﷺ : إياكم ومحقرات الذنوب , فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه كرجل كان بأرض فلاة , فحضر صنع القوم فجعل الرجل يجيء بالعود والرجل يجئ بالعود حتى جمعوا من ذلك سوادا وأججوا نارا فأنضجوا ما فيها .

وقال : اتقوا المظالم ما استطعتم فإن الرجل يجئ يوم القيامة بحسنات يرى أنها ستنجيه , فما يزال عند ذلك يقول : إن لفلان قبلك مظلمة , فيقال : امحوا من حسناته فما تبقى له حسنة .

ويقول ﷺ : إن رجلا حضره الموت , فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا مت فاجمعوا لي حطبا كثيرا جزلا , ثم أوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت فخذوها واطحنوها , ثم انظروا يوما راحا - تهب فيه الريح -فاذروها في اليوم , ففعلوا ما أمرهم , فجمعه الله تعالى , وقال : لم فعلت ذلك ؟

قال : من خشيتك فغفر له .

وقال : من أخطأ خطيئة أو أذنب ذنبا ثم ندم فهو كفارته .

عن التحذير من الربا وهو آفة كل عصر , وهو الذي يحاربنا الله تعالى من أجله بعد أن حذرنا قائلا : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين , فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله , وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون [1]

يتلقف ابن مسعود رضى الله عنه خديث النبي ﷺ عن الربا , وذنوب أخرى ثم يروى لنا هذه الجملة من أقواله ﷺ .

قال النبي ﷺ : آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده إذا علموا ذلك , والواشمة والموشومة للحسن , ولاوي الصدقة , والمرتد أعرابيا بعد الهجرة ملعونون على لسان محمد إلى يوم القيامة .

وقال ﷺ : الربا سبعون بابا , والشرك مثل ذلك .

وقال : الربا وإن كثر فإن عاقبته نصير إلى أقل .

وقال : لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه .

وقال : ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله تعالى .

أما عن كلأ الله تعالى لعباده , وحفظه لهم , وإرشاد النبي ﷺ لما يصلحهم ويريحهم في دنياهم تمهيدا لراحتهم في آخرتهم , فمنها ما يرويه ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله : إذا سمعتم نباح الكلاب ,ونهيق الحمار بالليل , فتعوذوا بالله من الشيطان , فإنهن يرين مالا ترون , وأقلوا الخروج إذا هدأت الرحل , فإن الله عز

[1] - البقرة ٣٧٨ ، ٣٧٩

وجل يبث من خلقه ما يشاء , وأجيفوا - الأبواب , واذكروا اسم الله عليها فإن الشيطان لا يفتح بابا أجيف , وذكر اسم الله عليه , وغطوا الجرار , وأوكئوا - اربطوا - القرب , و أكفئوا الآنية .

وقال : إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ,فإنه لا يدرى ما خلفه عليه , ثم ليضطجع على شقه الأيمن , ثم ليقل : باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها , وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين .

وقال ينصح المسلمين : إذا اضطجعت فقل : بسم الله , أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه , ومن شر عباده , ومن همزات الشياطين , وأن يحضرون

وقال : إذا استيقظ الإنسان من منامه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك : افتح بخير , ويقول الشيطان : افتح بشر , فإن قال : الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد موتها : الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض , الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى طرد الملك الشيطان , وظل يكلؤه .

ومن هديه ﷺ إذا أوى إلى فراشه أن يقول : اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك .

وكان يضع يده اليمنى تحت خده .

الحكيم العابد

خرج عبد الله بن مسعود إلى المسجد يوم الجمعة فوجد ثلاثة سبقوه , فضرب كفا بكف , وقال فى حسرة وألم وندم , رابع أربعة ؟ وما رابع أربعة من الله ببعيد . فقد سمعت النبي ﷺ يقول : إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدر

تراوحهم إلى الجمعات , الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابـــع ومـــا رابـــع أربعـــة من الله ببعيد .

وسألت أم عبد ابنها عبد الله : ما الصراط المستقيم ؟

فأجابها : تركنا محمد ﷺ في أدناه , وطرفه في الجنة , وعن يمينه جواد وعـــن يساره جواد , وثم رجال يدعون من مرّ بهم فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت بـه إلى النار , ومن أخذ على الصراط انتهى إلى الجنة .

ثم قرأ ابن مسعود : وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . الأنعام

وسئل أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود عن الكتاب الأول والقرآن فقـــال : قال النبي ﷺ : كان الكتاب الأول يترل من باب واحد على حرف واحد , ونـــزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر , وآمر , وحلال , وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال , فأحلوا حلاله , وحرموا حرامه , وافعلوا ما أمرتم به , وانتهوا عما نهيتم عنه , واعتبروا بأمثاله , واعملوا بمحكمه , وآمنوا بمتشابهه , وقولوا آمنا بـــه , كل من عند ربنا .

وسمع قارئا يقرأ : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلـــم قائمـــا بالقسط , لا إله إلا هو العزيز الحكيم , إن الدين عند الله الإسلام .[1]

فقال : من قال : وأنا أشهد بما شهد الله به , وأستودع الله هذه الشـــهادة , وهى لي عند الله وديعة جئ به يوم القيامة فقيل : عبدي هذا عهد إلىّ عهدا , وأنـــا أحق من وفى بالعهد , أدخلوا عبدي الجنة .

وجاء رجل إلى ابن مسعود فقال له : إنك في زمان كثير فقـــهاؤه , قليـــل قراؤه , تحفظ فيه حدود القرآن , وتضيع حروفه , قليل من يســـأل , كثـــير مـــن يعطى , يطيلون فيه الصلاة , ويقصرون الخطبة , يبدون أعمالهم قبـــل أهوائـــهم ,

[1] - آل عمران ١٨ ، ١٩

وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه , كثير قراؤه , تحفظ فيه حروف القرآن , وتضيع حدوده , كثير من يسأل , قليل من يعطى , يطيلون فيه الخطبة , ويقصرون الصلاة , يبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم .

جاهد عبد الله بن مسعود في اليرموك , وكان مسئولا عن الغنائم , يراقب جمعها ويحفظها حتى يتم تقسيمها .

وسيره عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الكوفة , وكتب إليهم كتابا يقول فيه : إني قد بعثت لكم عمار بن ياسر أميرا , وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا , وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر , فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما , وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي .

سأل رجل أبا موسى عن امرأة تركت ابنتها وابنة ابنها وأختها , فقال : النصف للبنت , وللأخت النصف , وقال : ائت بن مسعود فإنه سيتابعني , قال : فأتوا ابن مسعود فأخبروه بقول أبي موسى , فقال : لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين , لأقضين فيها بقضاء رسول الله ﷺ , للابنة النصف , ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين , وما بقي فللأخت , فأتوا أبا موسى , فأخبروه بقول ابن مسعود , فقال أبو موسى : لا تسألوني عن شئ مادام هذا الحبر بين أظهركم [1] .

ومن حديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ أمر ابن مسعود أن يخطب , فقام وقال : يا أيها الناس , إن الله تعالى ربنا , وإن الإسلام ديننا , وإن القرآن إمامنا , وإن البيت قبلتنا , وإن هذا نبينا - وأومأ إلى النبي ﷺ , رضينا ما رضى الله تعالى لنا ورسوله , فقال النبي ﷺ: أصاب ابن أم عبد , أصاب ابن أم عبد وصدق ورضيت بما رضى الله تعالى لي ولأمتي وابن أم عبد , وكرهت ما كره الله تعالى لي ولأمتي وابن أم عبد . [2]

[1] - أسد الغابة ٣ / ٢٥٦

[2] - حلية الأولياء ١ / ١٣٧

من حديث عليّ رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : لو كنت مؤمرا أحدا من غير مشورة لأمرت ابن أم عبد .

وقال زيد بن وهب : إني لجالس مع عمر إذ جاءه ابن مسعود يكاد الجلوس يوارونه من قصره , فضحك عمر حين رآه , فجعل يكلم عمر ويضاحكه وهو قائم , ثم ولىّ فأتبعه عمر بصره حتى توارى فقال : كيف ملئ علما .

عن العلم يقول ابن أم عبد : لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا أهل زمانهم ولكنهم وضعوه عند أهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا عليهم , سمعت رسولكم ﷺ يقول : من جعل الهموم هما واحدا همه المعاد , كفاه الله سائر همومه , ومن شعبته الهموم أحوال الدنيا , لم يبال الله فى أي أوديتها هلك.

وفى نفس السياق يقول ابن مسعود : اليقين أن لا ترضى الناس بسخط الله , ولا تحمد أحدا على رزق الله , ولا تسأل أحدا على ما لم يؤتك الله , فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص , ولا يرده كراهية كاره , وإن الله بقسطه وعلمه وحكمه جعل الروح والفرج فى اليقين والرضى , وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

وعن الثبات على المبدأ وإيثار رضا الله على رضا الناس , جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : علمني كلمات جوامع نوافع , فقال : تعبد الله ولا تشرك به شيئا , وتزول مع القرآن أينما زال ومن جاءك بصدق من صغير أو كبير وان كان بعيدا بغيضا فاقبله منه , ومن جاءك بكذب وإن كان جنيبا قريبا فاردده عليه.

وفى مجال نصحه وتذكيره وحكمته كان إذا قعد يقول : إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة , والموت يأتي بغتة , فمن زرع خيرا يوشك أن يحصد رغبة , ومن زرع شر ا يوشك أن يحصد ندامة , ولكل زارع ما زرع , ولا يسبق بطئ حظه , ولا يدرك حريص ما لم يقدر له , فمن أعطى خيرا فالله أعطاه , ومن وقي شرا فالله وقاه , العلماء سادة , والفقهاء قادة , مجالستهم زيادة .

وتتبدى حكمته إذا خطب فأتى بالجوامع التى تعلمها من أفصح العرب وأتقى الناس , وأكمل البشر خلقا وخلقا وعبادة وخشية وقربا من الله عز وجل ورسوله وصفيه , السراج المنير والبشير والنذير ٠

خطب أحد حكماء أمة محمد , وأنجب تلاميذه , وأحد وزرائه عبد الله بن مسعود ذات يوم فقال : إن أصدق الحديث كلام الله , وأوثق العرى كلمة التقوى, وخير الملل ملة إبراهيم , وأحسن القصص هذا القرآن , وأحسن السنن سنة محمد ﷺ, وأشرف الحديث ذكر الله , وخير الأمور عزائمها , وشر الأمور محدثاتها , وأحسن الهدي هدي الأنبياء , وأشرف الموت موت الشهداء , وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى وخير الهدى ما اتبع , وشر العمى عمى القلب , واليد العليا خير من السفلى , وما قل وكفى خير مما كثر وألهى , ونفس تنجيها خير من أمارة لا تحصيها وشر المعذرة عند حضرة الموت , وشر الندامة ندامة يوم القيامة , ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبرا , ومن الناس من لا يذكر الله إلا هجرا , وأعظم الخطايا اللسان الكذوب , وخير الغنى غنى النفس , وخير الزاد التقوى , ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل , وخير ما ألقى فى القلب اليقين , والريب من الكفر , والنوح عمل الجاهلية , و الغلول من جمر جهنم , والكبر كير من النار, والشعر من مزامير إبليس , والخمر جماع الإثم , والنساء حبائل الشيطان والشباب شعبة من الجنون , وشر المكاسب كسب الربا , وشر المآكل أكل مال اليتيم , والسعيد من وعظ بغيره , والشقي من شقي في بطن أمه , وإنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه وإنما يصير إلى موضع أربعة أذرع والأمر بآخره , وأملك العمل به خواتمه , وشر الروايا روايا الكذب , وكل ما هو آت قريب , وسباب المؤمن فسوق , وقتاله كفر, وأكل ماله من معاصي الله , وحرمة ماله كحرمة دمه , ومن تباك على يكذبه, ومن يغفر يغفر الله له , ومن يعف يعف الله عنه, ومن يكظم الغيظ يأجره الله , ومن يصبر على الرزايا يعقبه الله , ومن يعرف البلاء يصبر عليه , ومن لا يعرفه

نكر , ومن يستكبر يضعه الله , ومن يبتغ السمعة يسمع الله به , ومن ينـــوا الدنيـــا تعجزه , ومن يطع الشيطان يعص الله , ومن يعص الله يعذبه .

يحدث عبد الله أبناء جيلنا الذين انشغلوا بالمظاهر , وافتتنوا بالدنيا , وغبطـــوا أهل الفانية و لم يتفكروا كثيرا فى الآخرة , فقد جاء ناس من الدهاقين إلى عبد الله بن مسعود فتعجب الناس من غلظ رقابهم وصحتهم فقال : إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسما وأمرضهم قلبا , وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبا وأمرضهم جسما , وايم الله لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان .

وقال : من استطاع منكم أن يجعل كنزه حيث لا يأكله الســـوس ولا تنالـــه السراق فليفعل , فإن قلب الرجل مع كنزه .[1]

وجاء عتريس بن عرقوب الشيباني إلى ابن مسعود فقال : هلك من لم يـــأمر بالمعروف لم ينه عن المنكر , فقال ابن مسعود : هلك من لم يعرف قلبه المعـــروف , و لم ينكر قلبه المنكر .

وقال : يذهب الصالحون أسلافا , ويبقى أهل الريب من لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا

وسمع عبد الله رجلا يقول : أين الزاهدون فى الدنيا , الراغبون في الآخـــرة ؟ فقال عبد الله : أولئك أصحاب الجابية , اشترط خمسمائة من المسلمين أن لا يرجعوا حتى يقتلوا , فحلقوا رؤوسهم ولقوا العدو فلم يبق منهم إلا مخبر عنهم

وقال - وكان يكررها كثيرا - أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة وأكثر اجتهادا مـــن أصحاب محمد ﷺ , وهم كانوا خيرا منكم , قالوا : لم يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة .

إلى الرحاب

[1] - حلية الأولياء ١ /١٣٨

كان عبد الله يقول : ذهب صفو الدنيا , وبقى كدرها , فالموت اليوم تحفة لكل مسلم.

وكان يقول : ألا حبذا المكروهان , الموت والفقر , وايم الله إن هو إلا الغنى أو الفقر, وما أبالي بأيهما ابتليت , إن كان الغنى إن فيه للعطف ,
وإن كان الفقر إن فيه للصبر.

ويقول : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته , ولا يحل بذرته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى , والتواضع أحب إليه من الشرف , وحتى يكون حامده وذامه سواء

وفسرها أصحاب عبد الله فقالوا : حتى يكون الفقر في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام , والتواضع في طاعة الله أحب من الشرف في معصية الله .
وقال عبد الله : والله الذي لا إله غيره , ما يضر عبدا يصبح على الإسلام ويمسي عليه ما أصابه في الدنيا .

ثم تأتي الناحية العملية في عبد الله فيقول : والذي لا إله غيره ما أصبح عند آل عبد الله ما يرجون أن يعطيهم الله به خيرا أو يدفع عنهم به سوءا إلا أن الله قد علم أن عبد الله لا يشرك به شيئا .
وقال رجل عند عبد الله : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين , أكون من المقربين أحب إلى .
فقال عبد الله : لكن هناك رجل ودّ لو أنه إذا مات لم يبعث - يعنى نفسه -.
وقال عبد الله بن مسعود : لو وقفت بين الجنة والنار فقيل لى : اختر تخيرك من أيهما تكون أحب إليك ؟ أو تكون رمادا , لأحببت أن أكون رمادا .
وقال : لو تعلمون علمي لحثوتم التراب على رأسي .
وقال أبو الأحوص : دخلنا على ابن مسعود , وعنده بنون ثلاثة كأمثال الدنانير , فجعلنا ننظر إليهم فقطن بنا , فقال : كأنكم تغبطوني بهم ؟ قلنا : وهل يغبط

الرجل إلا بمثل هؤلاء ؟ فرفع رأسه إلى سقف بيت قصير له قد عشش فيه خطـاف فقال : لأن أكون نفضت يدي من تراب قبورهم أحب إلي من أن يقع بيض هذا الخطاف فينكسر [1].

وعن أبي مسعود أنه كان يجالس عبد الله بن مسعود في الكوفة , فبينما هو في صفة له وتحته فلانة وفلانة - امرأتان ذواتا منصب وجمال , وله منها ولد كأحسن الولد إذ شقشق على رأسه عصفور ثم قذف أذى بطنه , فنكته بيده وقال : لأن يموت آل عبد الله ثم أتبعهم أحب إلى من ان يموت هذا العصفور .

ويقول : ما منكم إلا ضيف وماله عارية , والضيف مرتحل , والعارية مؤداة إلى أهلها

وقال عبيد الله : كان عبد الله إذا هدأت العيون قام فسمعت له دويا كدوي النحل حتى يصبح .

ولكن هذا الجسد النحيل الذي يكاد الجلوس يوارونه وهو واقف , والذي دقت قدمه حتى أضحت أثقل فى الميزان من جبل أحد , هذا الجسد الذى بلغ من نحافته وضموره وقلة لحمه أن جهر بالقرآن فى أهل مكة وتحمل ضربتهم , و لم يمنعه من تكرار ذلك إلا منع النبي ﷺ له , وبلغ من هزاله أنه أجهر على عدو الله أبى جهل فى غزوة بدر فشهد له النبي ﷺ بالجنة .

هذا الجسد الذي أثبت أن القوة ليست فى العضلات ولا فى كثرة اللحم , وإنما يضعف الجسد ويقوى حسب ضعف الروح وقوتها , وحسب زيادة الإيمان ورقته , فاستطاع بقوة روحه وزيادة إيمانه أن يكون بطلا صنديدا .

[1] - أسد الغابة ٣ / ٢٥٦

لقد اشتاق هذا الجسد إلى الرفعة , وتطلعت تلك الروح إلى الملأ الأعلى , فدارت كلماته حول هذه المعاني , فكان يقول : ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله , فمن كانت راحته في لقاء الله فكأن قد .

وقال أبو وائل : ما أعدل بابن مسعود أحدا .

وقال الشعبي : ما دخل الكوفة أحد من الصحابة أنفع علما ولا أفقه صاحبا من عبد الله .

وقال مسروق : حدثنا عبد الله يوما فقال : قال رسول الله ﷺ , فرعد حتى رعدت ثيابه , ثم قال نحو ذا أو شبيها بذا .

وقال عبيد , سمعت أبا موسى يقول : مجلس كنت أجالسه ابن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة .

وقال مسرور : شاممت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة . عليّ وعمر وعبد الله , وزيد , وأبي الدرداء وأبي , ثم شاممت الستة فوجدت علمهم انتهى إلى عليّ وعبد الله .

وعن زيد بن وهب قال : رأيت بعيني عبد الله أثرين أسودين من البكاء .

وقال عبد الله : وددت أن الله غفر لي ذنبا من ذنوبي وأني دعيت عبد الله بن روثة

وكان يقول في دعائه : خائف مستجير , تائب , مستغفر , راغب , راهب .

ولقي رجل ابن مسعود فقال له : لا تعدم حالما مذكرا , رأيتك البارحة , ورأيت النبي ﷺ على منبر مرتفع , وأنت دونه , وهو يقول : يا ابن مسعود , هلم إليّ فلقد جفيت بعدى , فقال : لأنت رأيت هذا ؟ قال : فقال ابن مسعود أعزمت أن تخرج من المدينة حتى تصليّ عليّ .

أي أنه يؤكد للرجل أن هذه الرؤيا تعني قرب وفاته , وأنه يؤكد على هذا الرجل أن يبقى في المدينة حتى يشهد الصلاة عليه .

ألزمه المرض الفراش فكتب وصيته وفيها : وصيتى إلى الله وإلى الزبير بن العوام , وإلى ابنه عبد الله بن الزبير , وأهما فى حل وبل مما قضيا فى تركتى -يعنى لهما كل الحق في التصرف بما يرياه صالحا في تركتي - وأنه لا تزوج امرأة من نسائي إلا بإذنهما .

وجاءه أمير المؤمنين عثمان يعوده فى مرضه وسأله : ما تشتكى ؟

قال : ذنوبي ,

قال : فما تشتهى ؟

قال : رحمة ربى ,

قال : ألا آمر لك بطبيب ؟

قال : الطبيب أمرضني

قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ -وكان عبد الله قد تنازل عن عطائه فى بيت المال منذ مات عمر رضى الله عنه - فقال : لا حاجة لى فيه ,

قال : يكون لبناتك ,

قال : أتخشى على بناتي الفقر؟ أنى أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة , وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا .

ومات سنة اثنتين وثلاثين وصلى عليه عثمان أوعمار أو الزبير وكانت سنه بضعا وستين سنة , ودفن بالبقيع .[1]

ودخل الزبير على عثمان بعد وفاة عبد الله , فقال له : أعطني كل ما استغنى عنه عبد الله من عطاء فعيال عبد الله أحق به من بيت المال , فأعطاه خمسة عشر ألفا

ونعي عبد الله بن مسعود إلى أبي الدرداء فقال : ما ترك بعده مثله

[1] - الطبقات الكبرى ٢ / ٣٤٢ ، الإصابة ٤٩٤٥ ، أسد الغابة ٣ م ٢٥٥ ، سير أعلام النبلاء ١ / ٤٦١

وقال علي بن أبي طالب : إنه لم يكن نبيّ إلا أعطى سبعة نجباء رفقاء وزراء , وإن رسولكم أعطى أربعة عشر حمزة وأبو بكر وعمر وعلي وجعفر وحسن وحسين وابن مسعود وأبو ذر و المقداد و حذيفة وعمار وسلمان ٠

وجزع عمرو بن العاص عند موته , فقيل له : قد كان رسول الله ﷺ يدنيك ويستعملك , فقال والله ما أدرى ما كان ذلك منه , أحبّ أو كان يتألفني ولكني أشهد على رجلين أنه مات وهو يحبهما ابن أم عبد وابن سمية , يعني ابن مسعود وعمّارا ٠

ذو الرأي

حباب بن المنذر

حباب بن المنذر بن الجموح بن زيد الأنصاري الخزرجي السلمي [1].
ويسمى الحباب ، ويكنى أبا عمرو أو أبو عمر.
ويقال له : ذو الرأي ، وصاحب المشورة ، فقد رأى وأشار على النبي ﷺ وقبل مشورته ، وعمل بها ، في بدر وفي خيبر .
السابق إلى الإسلام .
والأنصاري الكريم .
والمجاهد الصنديد .
والمفكر الحربي اليقظ .
وحامل الراية في خيبر ، ومقتحم الحصون ، وأحد فوارس رسول الله ﷺ .

ذو الرأي

لما خرج النبي ﷺ بأصحابه إلى بدر انتظارا لعير قريش ، وعلم بذلك أبو سفيان ، أرسل إلى مكة يخبرهم بخبر المسلمين مع ضمضم بن عمرو ، وكان يرعى جملين له بالساحل ، فاستأجره أبو سفيان بعشرين مثقالا وأمره أن يخبر قريشا بأن محمدا قد عرض لعيرهم ، وأمره أن يجدع بعيره إذا دخل مكة ويحول رحله ويشق قميصه من قبله ودبره ويصيح .. الغوث الغوث ، يا معشر قريش ، يا آل لؤي بن غالب ، اللطيمة ، لقد عرض لها محمد في أصحابه الغوث الغوث ، و الله ما أرى أن تدركوها .[2]

[1] – أسد الغابة ١ / ٤٣٦
[2] – إمتاع الأسماع ١ / ٦٦

لم تملك قريش من أمرها شيئا حتى نفروا على الصعب والذلول ، وتجهزوا في ثلاثة أيام ، وأعان قويهم ضعيفهم ، وقام الخطباء يحرضون أهل النفقة فاجتمع لهم عدد من المال .

وأقبل أبو سفيان بالعير ومعها سبعون رجلا ، فكانت عيرهم ألف بعير تحمل المال وقد خافوا خوفا شديدا حين دنوا من المدينة ، واستبطأ أبو سفيان ضمضم والنفير[1] فلما كانت الليلة التي يصبحون فيها على ماء بدر ، جعلت العير تقبل بوجوهها إلى بدر ، وكانوا يأتون من وراء بدر آخر ليلتهم على أن يصبحوا بدرا إن لم يعترض لهم ، فما انقادت لهم العير حتى ضربوها بالعقل وهي ترجع الحنين تزاور — تميل يا عناقها — إلي ماء بدر وما بها إلى الماء حاجة ولقد شربت بالأمس وجعل أهل العير يقولون :هذا شيء ما صنعته معنا منذ خرجنا ، وغشيتهم تلك الليلة الظلمة حتى ما يبصر أحد منهم شيئا فأصبح أبو سفيان ببدر قد تقدم العير وهو خائف من الرصد فضرب وجه غيره فساحل بها وترك بدرا يسارا وانطلق سريعا .

فأرسل أبو سفيان قيس بن امرئ القيس إلى أهل مكة يأمرهم بالرجوع يخبرهم قد نجت عيرهم فلا تجزروا أنفسكم أهل يثرب فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك إنما خرجتم لتمنعوا العير أموالكم وقد نجاها الله فعالج قريشا فأبت الرجوع بإصرار أبي جهل وعاد قيس إلى أبي سفيان وقد بلغ الهدة[2]

فأخبره بمضي قريش فقال أبو سفيان : وا قوماه هذا عمل عمرو بن هشام ـ يعني أبا جهل ـ كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى والبغي منقصة وشؤم ،إن أصاب محمد النفير ذللنا[3]

ورجع الأخنس بن شريق ببني زهرة ، وكانوا نحو مائة فلم يشهد أحد من بني زهرة بدرا إلا عمّي مسلم بن شهاب الزهري .

[1] – النفير : القوم ينفرون للقتال المعجم الوسيط ٢ / ٩٤٠

[2] – موضع بين مكة والطائف : معجم البلدان ٥ / ٣٩٥

[3] – الطبري ٢/ ٤٣٨ ، الطبقات الكبرى ٢/ ١٤ ، الواقدي ١/ ٤٥

يقول ابن قتيبة : وكان الأخنس قد خلا بأبي جهل فقال له : أترى محمدا يكذب ؟

فقال أبو جهل : كيف يكذب على الله وقد كنا نسميه الأمين ألا إنه ما كذب قط لكن إذا كان في عبد مناف السقاية و الرفادة و المشورة ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء بقي لنا .

فعند ذلك رجع الأخنس ببني زهرة ورجعت بنو عدي قيل ذلك بمر الظهران[1]

ونزل النبي ﷺ أدنى بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من رمضان فبعث عليا و الزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو ليتجسسوا الأخبار على الماء فجاءته الأخبار بقدوم قريش فاستشار أصحابه في القتال فعزموا عليه ثم أقبل إليه الخبير العسكري الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله أهذا المنزل أنزلكه الله أم هو الرأي و الحرب المكيدة ، فقال : بل هو الرأي والحرب و المكيدة ، فقال الحباب : يا رسول الله إني خبير بهذا الموضع وأرى أن تنطلق بنا إلى أدنى ماء إلى القوم فإني عالم بها وبقلبها (القليب هو بئر الماء) بها قليب قد عرفت عذوبة ماء لا ينزح فننذهب إليه ثم نبني حوضا عليه ونقذف فيه آنيتنا فنشرب ونقاتل ونغور ما سواها من القلب فقال : يا حباب قد أشرت بالرأي ونهض بمن معه فنزل على القليب كما أشار الحباب .

ثم عقد النبي ﷺ الألوية فجعل لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ .

وكان لقريش ثلاثة ألوية : لواء مع أبي عزيز بن عمير ولواء مع النضر بن الحارث و لواء مع طلحة بن أبي طلحة .

وخطب النبي ﷺ يومئذ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

[1] - إمتاع الأسماع ١ / ٨٠

ما بعد : فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه وسلم وأنهاكم عما نهاكم عنه فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطي على الخير أهله وعلى منازلهم عنده به يذكرون وبه يتفاضلون وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به الغم وتدركون النجاة في الآخرة فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإن الله يقول : لمكر الله أكبر من مقتكم أنفسكم [1]

انظروا الذي أمركم به من كتابه وأراكم من آياته وأعزكم بعد ذلة فاستمسكوا به يرض به ربكم عنكم وابلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا ما وعدكم به من رحمته ومغفرته فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم إليه ألجأنا ظهورنا وبه اعتصمنا وعليه توكلنا وإليه المصير . يغفر الله لي ولكم وللمسلمين [2]

لقد كانت مشورة الحباب في بدر من أكبر أسباب النصر حتى إن المشركين عندما رأوا ما فعل المسلمون بتغوير القلب بحيث لا يجدون ماء للشرب أصابهم هم شديد وحاولوا اقتحامه فقتل الأسود الذي نذر أن يشرب منه ليفتح بذلك طريقا إليه

و لم تكن مهمة الحباب هي المشورة وحدها وإنما هو الفارس الذي دوخ المشركين في بدر وفي أحد وفي كل مشاهد النبي ﷺ .

يقول المقريزي : (وكان الحباب بن المنذر بن الجموح يحوش المشركين — في أحد — كما تحاش الغنم واشتملوا عليه حتى قيل قد قتل ثم برز والسيف في يده

[1] - غافر / ١٠

[2] - إمتاع الأسماع ١/ ٨٩

وافترقوا عنه وجعل يحمل على كل فرقة منهم وإنهم يهربون منه وكان يومئذ معلما بعصابة خضراء في مغفره [1]

وكان المقاتلون الشجعان يعلمون أنفسهم بحيث يعرفهم من بعيد من ينظر إليهم وقت احتدام المعارك والتحام الأجساد وذلك حتى يحفزهم على البسالة فلا يضعفونه عند احمرار البأس فيتحدث الناس عن ضعفهم وحتى يستنجد بهم من يرى نفسه في مأزق يطلب فيه المعونة على غرار قول عنترة .

ولقد شفى نفس وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

وقد كان أبو دجانة يعلم نفسه بعصابة حمراء

وكان علي يعلم سيفه بمقبض يعرفه الناس

وكان الحباب بن المنذر يعلم نفسه بعصابة خضراء

غير أن المجاهدين المسلمين لم تكن علاماتهم للمفاخرة و المباهاة وهم يعلمون بيقين أن هذا المعنى يسقط عنهم صنعة الجهاد فالذي يقاتل ليقال عنه شجاع أو ليكسب مالا أو ليرى مكانه لا يكون مجاهدا إذا قتل لا يكون شهيدا .

وإنما كان تعليم شجعان المجاهدين أنفسهم لكي يفتوا في عضد العدو ويهبطوا بروحه المعنوية فيقل أدائهم ويضعف وفي نفس الوقت يكونون عضدا لمن يتحرف للمسلمين لقتال الأعداء أو يكون في حاجة لفئة ينحاز إليها فهم في هذا الحين فئته .

وكان النبي ﷺ يعجبه أن يظهر المقاتل المسلم استهانته بالعدو وشغفه بالجهاد ولكنه يضع الضوابط التي تفرق بين حالي السلم و الحرب فعندما علم أبو دجانة نفسه بعصابة حمراء في يوم أحد ومشى متبخترا بين الصفين قال النبي ﷺ : هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذه المواطن .

[1] - إمتاع الأسماع – ١ / ١٢٨

وكان من هديه ﷺ أن يكايد أعداءه بكل ما استطاع فلما قدم مكة في عمرة القضاء قال لأصحابه : اكشفوا عن المناكب واسعوا في الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم[1]

وأخرج أحمد عن ابن عباس أن قريشا قالت : إن محمدا وأصحابه وقد وهنتهم حمى يثرب فلما قدم النبي صلى اله عليه وسلم لعامه الذي اعتمر فيه قال لأصحابه : ارملوا بالبيت ثلاثا ليرى المشركون قوتكم فلما رملوا قالت قريش : ما وهنتم .[2]

وتندرج العصائب التي يعلم بها المجاهدون أنفسهم في القتال مثل عصابة الحباب بن المنذر الخضراء تحت هذا السبيل .

الفاتح

إذا كان الحباب بن المنذر في غزوة بدر حاز وسام (ذي الرأي) وكان حامل لواء الخزرج ، فإنه في الصراع مع اليهود كان ذا الرأي ، وحامل اللواء ، وكان كذلك فاتحا وقائدا .

لم يغب رأي الحباب في الصراع مع اليهود الذين عانى المسلمون منهم كثيرا في يثرب في مقابلة التسامح وحسن الجوار الذي كان المسلمون يقدمونه لليهود ، ولعل من أبرز علامات هذا التسامح معاملة النبي ﷺ ليهود بني النضير الذين تآمروا على قتله ، فحقن دماءهم ، وأعفى من الأسر نساءهم وذراريهم ، وسمح لهم بأن يهاجروا إلى أي مكان يشاءون آمنين على أرواحهم ، وما قدروا على حمله من أموالهم ، فاختار زعماؤهم الرحيل إلى خيبر [3]

وفي خيبر بدأ يهود بني النضير يمسكون بزمام الأمورفيها ويشعلون الأحقاد ويحيكون المؤامرات ضد المسلمين ، بالتعاون مع المشركين تارة مثل غزوة الأحزاب، وتارة أخرى بمحاولة حفز قبائل الصحراء الراغبين في الثروة ، كما حاولوا في خيبر

[1] - إمتاع الأسماع ١/ ١٢٨

[2] - المسند ١/ ٣٠٦ ، البخاري ٣/ ٣٧٦ ، مسلم ١٢٦٦

[3] - زاد المعاد ٣/ ٣٧١

، وقد علم النبي ﷺ بكل ما أراده اليهود في خيبر ودبروه ، فابرأ ذمة الله إليـــهم ، وأرسل يدعوهم إلى الإسلام وبعد رفضهم حشد لهم في ضربة وقائية ، مع كـــثرة عددهم وقلة عدد المسلمين ، وكان له علم أبيض سماه العقاب [1] ووزع أربع رايـات على أربع قيادات هم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسعد بن عبادة و الحبـاب بن المنذر [2]

وجعل مقر القيادة في أعلى النطاة في منطقة مكشوفة بالقرب من حصن نـاعم الذي كان أول حصن هاجمه المسلمون وقائده مرحب الشهير بشجاعته عنه والـذي اشترك في قتله علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة [3]

وقد ألح النبي ﷺ على حصن ناعم في اليوم الأول من القتال ، وقاتل بنفســه على جواد اسمه الظرب ، وهو يلبس درعين ومغفرا وعليه بيضة الحـرب وفي يـده قناة وترس [4]

وأمام حصن ناعم دار القتال عنيفا بين المسلمين واليهود ، وظل المسـلمون يهاجمون طوال اليوم ، ولكن محاولات المسلمين باءت بالفشل حتى انتـهى اليـوم وغلق اليهود أبوابهم ، ثم فتح اليهود الأبواب وعاودوا الهجوم الـذي صمـد لـه المسلمون بعض الوقت ، ثم ضغط اليهود فكشفوهم وطاردوهم حـتى انتـهوا إلى مكان النبي ﷺ فاشتد عليه ذلك [5]

في هذا اليوم الأول للقتال لاحظ القائد الكبير الحباب بن المنذر أن مكـان القيـادة ليس مناسبا من الناحية العسكرية ، فتفقد المكان فوجد أن حصون النطاة تقع علـى

[1] – السيرة الحلبية ٢ / ١٦٠
[2] الطبقات الكبرى ٢ / ١٦٠
[3] – الواقدي ٢ / ٦٤٣
[4] – إمتاع الأسماع ١ / ٣١٣
[5] – إمتاع الأسماع ١ / ٣١٤

مرتفعات عالية ، ومعسكر المسلمين مكشوف تماما أمام تلك الحصـــون وأن نبـــال اليهود تخابط المسلمين داخل معسكرهم ، حتى أصيب خمسون منهم بجراح ، كمـــا لاحظ أن المنطقة موبوءة حيث النخيل ونز الماء من الأرض ، فجاء إلى النبي ﷺ في اليوم الأول من القتال وهو يهاجم حصن ناعم ، فقال يا رسول الله ، إنك نزلـــت منزلك هذا ، فان كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم فيه ، وإن كان الرأي تكلمنا .
قال : بل هو الرأي .

قال الحباب :يا رسول الله إنك دنوت من الحصن ونزلت بين ظهري النخـــل والنز مع أن أهل النطاة لي بهم معرفة ليس قوم أبعد سهما منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم مع أني لا آمـــن مـــن بيـــاتهم (أي هجومهم ليلا) يدخلون في خمر النخيل (أي النخيل العالي الذي يخفيهم) تحول يـــا رسول الله إلى موضع برئ من النز و الوباء نجعـــل الحـــر بيننـــا وبينـــهم حـــتى لا ينالنا نبلهم.

فاستصوب النبي ﷺ رأى الحباب بن المنذر وقال :لقد أشـــرت بـــالرأي إذا أمسينا تحولنا .

إلا أنه رأى أن يستمر في مقاتلة أهل حصن ناعم حتى يخيم الليل ليتمكن مـــن تغيير مقر قيادته في الليل وقال : نقاتلهم اليوم [1] وعملا بمشورة الحبـــاب اســـتدعى الصحابي محمد بن مسلمة قائد حرسه وطلب منه أن يبحث عن موقع أصلح مـــن الموقع الذي عسكر فيه ليتحول إليه قائلا :انظر لنا منزلا بعيدا عن حصونهم بريئا من الوباء نأمن فيه بياتهم .

[1] – السيرة الحلبية ٢ / ١٥٨ ، المغازي ٢ / ٦٤٣

وامتثل محمد بن مسلمة لأمر القائد وانطلق مفتشا عن مكان تنطبق عليه الشروط حتى اختار وادي الرجيع فرجع قائلا : يا رسول الله وجدت لك منزلا وذكر له وادي الرجيع فقال : على بركة الله وتحول إليه في الليل .

وهذا يعني أن المسلمين قاتلوا يهود خيبر أول يوم من أسفل حصون النطاة ثم قاتلوهم بعد تحول مقر القيادة إلى الرجيع من أعلاها ، حتى فتح الله عليهم خيبر[1]

وفي بداية حصار المسلمين لحصن ناعم تلقى المسلمون درسا في الانضباط العسكري وخطورة عدم التقيد بأوامر القيادة وأن على الجندي أن لا يقدم على عمل حتى يأذن القائد فقد نهى النبي ﷺ أن يقاتل أحد حتى يأذن لهم ولكن أحد المجاهدين من قبيلة أشجع رأي يهوديا وظن أنه أصاب غرة فحمل عليه ليقتله فقتله اليهود فقال الناس: يا رسول الله ،استشهد فلان : أبعد ما نهيت عن القتال ؟

قالوا : نعم

فأمر منادينا ينادي في الناس :لا تحل الجنة لعاص .[2]

وأثناء حصار حصن ناعم أسلم عبد حبشي كان مملوكا لليهود فقاتل مع المسلمين حتى قتل فدخل الجنة و لم يسجد لله سجدة واحدة .

فقد ذكر أصحاب السير أن عبدا حبشيا اسمه أسلم كان مملوكا لأحد سادات خيبر فلما رأى أهل خيبر يتحصنون ويستعدون للقتال سألهم فقالوا : نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي فوقعت تلك الكلمة في نفسه فأقبل بغنمه يسوقها إلى رسول الله ﷺ ثم طلب مقابلته وقال: يا محمد ما تقول ؟ وما تدعو إليه ؟

فقال النبي ﷺ : أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن لا تعبد إلا الله .

[1] – إمتاع الأسماع ١ / ٣١٠ ، الطبقات الكبرى ٢/ ٧٧ ، ابن هشام ٢ / ٣٢٩ ، البداية والنهاية ٤ / ١٨٣

[2] – الواقدي ٢ / ٦٤٩

فقال العبد : فمالي إن شهدت بها وآمنت بالله عز وجل .
قال : لك الجنة إن مت على ذلك .
فوقع الإسلام في قلبه فأسلم .

ثم قال الحبشي : يا رسول الله إن هذه الغنم عندي أمانة فكيف أصنع بها ؟

قال : أخرجها من العسكر ثم صح بها وارمها حصيات فإن الله عز وجل سيؤدي عنك أمانتك فقام الحبشي فأخذ حفنة حصباء فرمى بها في وجهها وقال : ارجعي إلى صاحبك والله لا أصحبك فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت حصن مرحب فعلم اليهودي أن العبد قد أسلم .

وخرج علي بن أبي طالب حاملا الراية لمقاتلة يهود حصن ناعم وتبعه الحبشي فقاتل اليهود حتى قتل فاحتمل إلى مقر قيادة النبي ﷺ فلما رآه قال لأصحابه : لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خيبر ولقد رأيت عند رأسه اثنتان من الحور العين و لم يصل لله سجدة قط [1]

ولما احتدم القتال أياما و لم يفتح الحصن قال النبي ﷺ : لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله فأعطاها عليًا فتم على يديه فتح الحصن [2] وقتل زعماؤه وعلى رأسهم القوي الشجاع مرحب الذي اشترك في قتله علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة .

وقرب انهيار مقاومة اليهود في حصن ناعم و بينما كان عمر بن الخطاب يقوم بأعمال الدورية ليلا و المسلمون على وشك اقتحام الحصن ألقى رجاله من الحرس القبض على رجل من اليهود فأمر عمر بأن تضرب عنقه ولكن اليهودي قال :

[1] – السيرة الحلبية ٢ / ١٦٣ ، المغازي ٢ / ٦٤٩
[2] – البخاري ٥ / ٣٧٩

اذهب إلى نبيكم حتى أكلمه فأمسكه عمر وانتهى به إلى باب النبي ﷺ فوجده يصلي فلما فرغ دخل به عليه فقال له : ما وراءك ومن أنت ؟

قال اليهودي (واسمه سماك) : تؤمنني يا أبا القاسم وأصدقك ؟

قال : نعم

قال اليهودي خرجت من حصن النطاة من عند قوم ليس لهم نظام تركتهم يتسللون من الحصن في هذه الليلة .

فقال : فأين يذهبون ؟

قال : إلى حصون الشق وقد رعبوا منك حتى إن أفئدتهم لتخفق وفيها حصن فيه السلاح و الطعام و الودك وفيه الماشية و المتاع واسمه حصن الصعب بن معاذ وقد عبأوا فيه آلة حصونهم التي كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضا وضعوه تحت الأرض .

قال : ما هو ؟

قال : منجنيق مفككة ودبابتان وسلاح من دروع وبيضة وسيوف فإذا دخلت الحصن غدا وأنت تدخله .

قال النبي ﷺ : إن شاء الله .

قال اليهودي : أوقفك مستودع الأسلحة السري فإنه لا يعرفه أحد من اليهود غيري.

ثم قال اليهودي : وأخرى غيرها

قال : ما هي ؟

قال : تستخرجه وتنصب المنجنيق على حصن الشق وتدخل الرجلين تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك وكذلك تفعل بحصن الكتيبة .

قال عمر : يا رسول الله إني أحسبه قد صدق .

فقال اليهودي :أحقن دمي .

قال : أنت آمن .

قال : ولي زوجة في حصن النزار فهبها لي .

قال : هي لك .

ثم سأل النبي ﷺ : لماذا حول اليهود ذراريهم من النطاة ؟

قال : جردوها للمقاتلة ، وحولوا الذراري إلى الشق والكتيبة .

ثم دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فقال : أنظرني أياما ، فأمر بتركه حرا ، وانشغل بإدارة المعارك ، وفي آخر المعارك أسلم اليهودي بعد أن وفى له النبي ﷺ بما وعده ، وأعطاه زوجته (نفيلة)

قال كعب بن مالك : رأيت اليهودي سماكا يأخذ بيد امرأة حسناء[1]

بعد سقوط حصن ناعم كان المقاتلون اليهود قد تسللوا إلى خط الدفاع الثاني وهو حصن الصعب بن معاذ ثاني أقوى الحصون ، وعنده أعطى النبي ﷺ الراية للحباب بن المنذر ، وقلده قيادة الهجوم .

قالت أم مطاع الأسلمية : وقد شهدت خيبر مع قومها (أسلم) : لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى النبي ﷺ من شدة الحالة ، فندب الناس فنهضوا فرأيت أسلم أول من انتهوا إلى حصن الصعب بن معاذ ، وإن عليه لخمسمائة مقاتل فما غابت الشمس حتى فتحه الله ، وكان عليه قتال شديد ، برز رجل من اليهود يقال له يوشع يدعو إلى البراز فبرز له الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات ، فقتله الحباب ، وبرز آخر يقال له : الديال ، فبرز له عمارة ابن عقبة الغفاري ، فيضر به ضربة على هامته ، وهو يقول : خذها وأنا الغلام الغفاري ، فقال الناس : بطل جهاده ، فبلغ الرسول ﷺ وقال : ما بأس به ، يؤجر ويحمد[2]

---

[1] - السيرة الحلبية ٢ / ١٥٩ ، المغازي ٢ / ٦٤٦

[2] - المغازي ٢ / ٦٦٠ ، البداية والنهاية ٤ / ١٩٥

فاستشاط اليهود غضبا لمصرع قائديهم يوشع و الديال ، فمـــهدوا لهجــوم معاكس على المسلمين بقذف شديد بالسهام صبوها كالمطر على المسلمين من أبراج الحصن ، ثم فتحوا الأبواب وقاموا بهجوم عنيف كشفوا بـــه قـــوات المســلمين ، وهزموها وطاردوها وكادوا يصلون إلى مكان النبي ﷺ الذي ثبـــت في مكانـــه ، وثبت معه الحباب بن المنذر يدافع عنه ، ونزل النبي ﷺ من على فرسه وهو ينـــادي على الناس فعاد المنهزمون إلى رشدهم وتحلقوا حول النبي ﷺ الذين علمهم كيـــف يكون الصمود ، فاضطر اليهود إلى أن يعودوا إلى حصنهم ويغلقوا الأبواب عليهم ، وفي الحال أعاد قائد الهجوم الحباب تنظيم صفوفه وشن بهم هجوما عنيفا لاقتحـــام الحصن قبل أن يغلقه اليهود ، ولكنه لقي منهم مقاومة عنيفة حالت دون تنفيذ خطته وانتهز اليهود فرصة تباعد المسلمين عن أسوار الحصن فشنوا هجوما ثانيا ، ولكـــن المسلمين ثبتوا خلف الحباب ، وقابلوا الهجوم بهجوم مضاد آخر .

يقول المقريزي : ولما أقام المسلمون على حصن الصعب يومين عداهم الحبـاب بن المنذر في اليوم الثالث ومعه الراية فقاتلهم أشد قتـــال ، وبكـــر رســـول الله ﷺ فتراموا بالنبل ، وقد ترس المسلمون حوله ، وثبـــت الحبـــاب برايتـــهم يراميـــهم على فرسه[1]

وقال جابر بن عبد الله : لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ ، وغـــزا بنـــا الحباب بن المنذر ومعه رايتنا تبعه المسلمون ، فقد أقمنا نقاتلهم يومين أشد القتـــال وثبت الحباب رايتنا والله ما زال يراميهم على فرسه .

وبالرغم من ثبات اليهود المدافعين عن الحصن ، وإغلاقهم الأبـــواب عنـــد تراجعهم أمام الحباب ورجاله ، إلا أن الاضطراب قد عمهم ، وانهارت معنويـــاتهم ،

---

[1] – المغازي ٢ /

٢ / ٦٨٠ [3] ٦٦٠ ؟ البداية والنهاية ٤ / ١٩٥

ولحظ ذلك الحباب قائد الهجوم ، فاغتنم فرصة اضطراب اليهود وتدني معنوياتهم ، فرسم في الحال خطة لاقتحام الحصن وفتحه ، وبموجب هذه الخطة شن القائد برجاله هجوما عاما خاطفا ، فاقتحموا الحصن ، وقاتلوا بضراوة حتى افتتحوه واستولوا على كل ما فيه من أسلحة وأرزاق ، وكانت شيئا عظيما فرج الله به الضائقة التي كان يعاني منها الجيش الإسلامي [1]

يقول أبو سيرة أحد الذين شهدوا فتح خيبر : ثم حمل صاحب رايتنا وحملنا معه وأدخلنا اليهود الحصن وتبعناهم في جوفه ، فلما دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غنم ، فقتلنا من أشرف لنا ، وأسرنا منهم ، وهربوا في كل وجه يركبون الحرة (الأرض الوعرة) يريدون الفرار ، وجعلنا ندعهم يهربون ، وصعد المسلمون على جدره ، فكبروا عليه تكبيرا كثيرا ، ففتتنا أعضاء اليهود بالتكبير ، ولقد رأيت فتيان أسلم وغفار فوق الحصن يكبرون ، فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن[2] أنه هناك ، من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك .

ونادى منادى رسول الله ﷺ : كلوا واعلفوا ولا تحتملوا [3]

وبعد أن فتح حصن ناعم وبعده حصن الصعب بن معاذ ، تحولت القيادة إلى المكان الأول بالمترلة ، حيث تمركز اليهود في حصن أمامي يقال له : قلعة أبي، وتحصنوا في هذه القلعة استعدادا لمقاومة المسلمين .

وبلغت الضراوة باليهود في القتال دفاعا عن قلعة أبي أن فتحوا أبواب هذه القلعة مستهينين بالموت ومعتدين بأنفسهم ومتحدين قوات المسلمين ، وخرج من قلعة أبي أحد فرساهم يقال له عزول ، وجال بفرسه أمام أسوار القلعة طالبا

---

[1] المغازي

٢ إمتاع الأسماع ١ / ٣١٨

المبارزة ، فبرز له من صفوف المسلمين الحباب بن المنذر الأنصاري وبعد أن تحاولا ساعة حمل الحباب على الفارس اليهودي فقطع يده اليمنى ففر هاربا إلى القلعة ، فقطع رجله وقضى عليه [1]

بعد فتح خيبر تركزت مقاومة اليهود في وادي القرى الذين أظهروا والعداوة منذ اللحظة الأولى فإن النبي ﷺ أرسل يدعوهم إلى الإسلام فقابلوا الدعوة بالقتال ورموا مدعما مولى الرسول ﷺ وهو يحط رحله ، فعبأ أصحابه وصفهم ودفع راية إلى سعد بن عبادة ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى عباد بن بشر ، وراية إلى سهل بن حنيف ليتولوا قيادة المجاهدين [2]

لم يغب رأي الحباب ولا سيفه عن نصرة الله ورسوله ودينه ، في أي مشهد من المشاهد ، حتى في غزوه بني قريظة والنضير والخوف من اجتماعهم على المسلمين لم يغب رأي الحباب السديد ، فقد قال : أرى أن نترل بين القصور ، فنقطع خبر هؤلاء ، وخبر هؤلاء عن هؤلاء ، فأخذ النبي ﷺ بقوله [3]

لقد بايع الحباب بن المنذر على الجهاد والنصرة ، فكان من أنصار الله وأنصار رسوله يوالي من يواليهما ويبر أمن يعاديهما ، وفي ذلك يقول الحباب .

ألم تعلما لله در أبيكما	وما الناس إلا كمه وبصير
بأنا وأعداء النبي محمد	أسود لها في العالمين زئير
نصرنا وآوينا النبي وماله	سوانا من أهل الملتين نصير[4]

[1] البداية والنهاية ٤/ ١٩٨ ، المغازي ٢ / ٦٦٩

[2] – زاد المعاد ٢/ ٣٥٤ ، ابن هشام ٢ / ٣٣٨

[3] – الطبقات الكبرى ٣/ ٥٦٧

[4] – الإصابة ٢ / ١٩٧

في السقيفة

وكان يوم السقيفة يوما مشهودا في حياة المسلمين ، وفي حياة الحباب بن المنذر ، ولعل موقفه في السقيفة جعل بعض الذين يترجمون للصحابة الكرام يتجاهلونه ، فلم أر له ذكرا عند بعضهم مثل سير أعلام النبلاء ، ولا في حلية الأولياء ولا عند بعض الكتاب المتأخرين .

ذهل الصحابة عن أنفسهم وضاعت أحلامهم عند موت النبي ﷺ وبدا كأنهم يرون أن الدولة التي بنوها بقلوبهم و بإيمانهم وسلاحهم سينفرط عقدها ويطمع فيها أعداؤها وهم كثير اليهود ، الموتورون و الوثنيون المتربصون ،

و المنافقون الحاقدون والأعراب ضعاف الإيمان الذين يكرهون طاعة الحكام و لم يعتادوا ذلك و يتفاخرون بعصيانهم كما كان يقول عمرو بن كلثوم .

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

كل هذه المحاذير كانت في عقول الصحابة الغيورين على دينهم و الراغبين في أن يتم نور الله وتعلو كلمته ويظهر الحق الذين دخلوا فيه و آمنوا به وبذلوا أنفسهم و أموالهم من أجله و من أجل ذلك تداعت الأنصار إلى سقيفة بني ساعدة ولحقهم أبو بكر و عمر بن الخطاب و أبو عبيدة بن الجراح وعندما قال الحباب بن المنذر ذو الرأي و المشورة : منا أمير و منكم أمير فلا بد أن بفهم ذلك على وجهه الصحيح وهو أن أغلب المسلمين كانوا يشكون من أن يستطيع أمير واحد ملأ الفراغ بعد النبي ﷺ وحراسة الدين وسياسة الرعية.

وأما قول الحباب المشهور : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب فهو تبرير لرأيه و التذكير بأنه المشير الذي أخذ النبي ﷺ برأيه في أعظم مشاهده .

يقول ابن الأثير : جذيلها تصغير جذل أراد العود الذي ينصب للإبل الجربى لتحتك به ، أي أنا ممن يستشفى برأيه كما تستشفى الإبل الجربى بالاحتكاك

وعذيقها: تصغير عذق بفتح العين وهو النخلة و المرجب الرجبة هو أن تدعم النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا أضيف عليها لطولها وكثرة حملها أن تقع يقال : رجبتها فهي مرجبة[1]

كان هذا رأي الحباب بن المنذر –وهو جدير بأن يبدي رأيه ويجهر به وجدير بأنه يسمع له– وقد استمع إليه كبار أصحاب النبي ﷺ واحترموا رأيه وجادلوه فيه ثم ألهمهم الله تعالى بيعة الصديق فاجتمعت الأمة المعصومة على الرشد ، لأنها لا تجمع على ضلالة وبقي التوقير لكل من ساهم بالرأي لينير الطريق أمام بلوغ الرشد و يبقى لكل صحابي مكانه في موكب الطليعة التي ارتادت الطريق ومهدت لبلوغ كلمة الله إلى الآفاق ومن باب التجاوز وصف أي واحد منهم بالعمل على خلاف الحق فهم الأمنة على الرسالة فعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد وأنا أمنة لأصحابي،فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون [2]

وعن أبي برزة : عن النبي ﷺ :أكرموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى يحلف الرجل قبل أن يستحلف ويشهد قبل أن يستشهد فمن أراد بحبوحة الجنة فعليه الجماعة وإياكم و الفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن [3]

وعن أنس عن النبي ﷺ قال : إن الله تعالى اختارني واختار لي أصحابي

---

[1] – أسد الغابة ١/ ٤٣٧ ، النهاية لابن الأثير ٢ / ١٩٧

[2] – مسند الإمام أحمد ٤ / ٣٩٨، مسلم في مناقب الصحابة ١٦ / ٨٣

[3] – المستدرك ١/ ١١٥ ، كنز العمال / ٣٢٤٥٩

واختار لي منهم أصهارا و أنصارا فمن حفظني فيهم حفظه الله ومن آذاني فيهم آذاه الله [١]

وعن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال : الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن أذى الله يوشك أن يأخذه [٢]

يدخل الحباب بن المنذر في هذه الأحاديث كما يدخل في الأحاديث التي خصت الأنصار بالذكر مثل : الأنصار كرشي وعيبتي وإن الناس يستكثرون وهم يقلون فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم[٣]

وعن جابر عن النبي صلى اله عليه وسلم : و الذي نفسي بيده لا يحب الأنصار أحد حتى يلقي الله تعالى إلا لقي الله تعالى وهو يحبه ولا يبغض الأنصار أحد إلا لقي الله تعالى وهو يبغضه [٤]

وعن رفاعة بن رافع قال : قال رسول الله ﷺ اللهم اغفر للأنصار ولذراري الأنصار و لذراري ذراريهم وجيرانهم [٥]

وتوفى في خلافة عمر بن الخطاب وقد نيف على الخمسين [٦]

[١] – تاريخ بغداد للبغدادي ٢ / ٩٩

[٢] – الترمذي في المناقب / ٥٨، أحمد ٤ / ٨٧

[٣] – البخاري في فضائل الصحابة /٤٣

[٤] – مجمع الزوائد ١٠ / ٣٨

[٥] الترمذي في المناقب / ٥٨ ، أحمد ٤ / ٨٧

[٦] – أسد الغابة ١ / ٤٣

سهل بن حنيف

أبو أمامة و أبو ثابت : سهل بن حنيف بن واهب بن عكيم بن ثعلبة من بني عمرو بن عوف من الأوس .[1]

أخوه عثمان بن حنيف و كان مثله سابقا قبائيا بدريا .

أولاده : أبو أمامة ، و عثمان ، و سعد .

آخى النبي صلى الله عليه و سلم بينه و بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

شهد بدرا و أحدا و المشاهد كلها .

روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أحاديث في الكتب الستة .[2]

في قباء

لما وصل الخبر من مكة إلى المدينة باختفاء النبي ﷺ بعد أن أنجاه الله من المشركين حين حاصروا بيته بسيوفهم مبيتين العزم على قتله ، فإن أهل المدينة طمعوا أن تكون وجهته إليهم خاصة بعد أن تكونت للإسلام قاعدة حصينة من المهاجرين و الأنصار يمكنهم حماية النبي ﷺ و الدفاع عنه ، ليتمكن من أن يبلغ الناس رسالة ربه ، و هذا هو المطلب الذي كان يعرضه على القبائل في الموسم ، فيترددون ويرحبون ، أو يعدون وعودا لا تسمن و لا تغني من جوع .

روى البخاري عن عروة بن الزبير قال : سمع المسلمون بالمدينة بمخرج النبي صلى الله عليه و سلم من مكة ، و كانوا يعدون كل غدة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله صلى الله عليه و سلم ومن معه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال :

[1] – الطبقات الكبرى ٣ / ٤٧١

[2] – أسد الغابة ٢ / ٣٦٤

بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون ، فثـــار المســـلمون إلى السلاح .[1]

قال ابن القيم : و سمعت الرجة بالتكبير في بني عمرو بن عـــوف ، و كـــبر المسلمون فرحا بقدومه ، و خرجوا للقائه ، و حيوه تحية النبوة ، و أحدقـــوا بـــه مطيعين حوله السكينة تغشاه ، و الوحي يترل : ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِـــبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [2]

قال عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ،وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر وتحدث للناس ، و جلس رسول الله صلى الله عليه و سلم صامتـــا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه و سلم يحيي أبا بكـر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظلـــل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه و سلم عند ذلك .[3]

و كانت المدينة قد زحفت كلها للاستقبال ، و كان يوما مشهودا لم تشـــهد المدينة مثله في تاريخها ، ونزل النبي ﷺ على كلثوم بن الهـــدم ، و كـــان يلتقـــي بالناس في بيت سعد بن خيثمة الذي كان يسمى بيت العزاب أو بيت الأعـــزاب ، الذي دخل التاريخ مجاورا و نظيرا لبيت الأرقم في مكـــة و الـــذي سمـــي حينئـــذ ببيت الإسلام .

سأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه و سلم عن رحلة الهجرة ، و كيـــف تحمـــل مشقتها و هو يسلك الدروب الموحشة و الطرق الوعرة حتى لا تدركه قريش .

و حدثهم رسول الله ﷺ عن عين الله الساهرة ،التي مافتئت تكلؤه و تكيـــد له، و تحبط مكر الكافرين .

---

[1] – الإصابة ٤ / ٢٧٤

[2] – الحجرات / ٤

[3] – إمتاع الأسماع / ١ ، ابن هشام ٢ / ٢١٠

ذكر لهم مطاردة سراقة بن مالك ، الذي كان أول النهار جاهدا عليهم وأخره حارسا لهم

و أخبرهم بآية الله في شاة أم معبد ، و كانت عازبا لا لبن فيها فمسح بيده الشريفة على ضرعها ، وسمى الله ودعا فتفاجت عليه و درت ، فدعا بإناء و حلب فيه حتى علته الرغوة فسقى أم معبد و سقى أصحابه و شرب ، ثم حلب حتى ملأ الإناء و تركه عندها .

وفي الطريق لقي أبا بريدة ،وكان رئيس قومه وقد خرج في طلب النبي صلى الله عليه و سلم و صاحبه رجاء المكافأة الكبيرة التي رصدتها مكة ، و لما واجه النبي ﷺ و كلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلا من قومه ، ثم نزع عمامته و عقدها برمحه، و اتخذها راية تعلن بأن ملك الأمن و السلام قد جاء ليملأ الدنيا قسطا و عدلا .[1]

و في اليوم الثالث جاء علي بن أبي طالب بعد أن أدى الأمانات إلى أهلها، وجاء بأهل النبي ﷺ : فاطمة و أم كلثوم ، و جارية النبي ﷺ أم أيمن بركة و هي زوج زيد بن الحارثة ، و معها ابنه

أسامة بن زيد ، و معهم أم علي فاطمة بنت أسد رضي الله عنهم .

و نزل علي في بيت امرأة لا زوج لها ، فرأى إنسانا يأتيها ليلا ، و يعطيها شيئا فاستراب علي في أمرها ، فسأل المرأة عن ذلك الرجل ، فقالت : إنه سهل بن حنيف ، عرف أني امرأة لا زوج لي يحتطب ، فهو يعدو على أصنام قومه فيكسرها ، ثم يحملها إلي فيقول : احتطبي بهذه .

و كان علي يذكر ذلك عن سهل بعد موته ، و كان النبي ﷺ قد آخى بينه و بين علي ، ثم آخى بين علي و بين سهل بن حنيف لما يجمع بينهما من إخلاص للدين ، وحب للنبي ﷺ و ما يتمتعان به من شجاعة عظيمة ، و ورع حكيم ، وفقه ، و جمال نفس و بدن .

[1] – البداية والنهاية / ٣

أسس النبي ﷺ في قباء أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم ،

و ارتحل إلى المدينة من قباء صبيحة الجمعة ، فأدركته صلاتها في بني سالم بن عوف فصلى بمن معه و كانوا مائة رجل في رواية البخاري .

و ارتحل بعد الصلاة إلى المدينة ، و قد كانت بيوتها و سككها غاصة بالناس ، و كانت ترج بالتسبيح و التحميد و التقديس ، و كانت البنات الصغيرات ينشدن الأنشودة الخالدة

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا — جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة — مرحبا يا خير داع

يرى ابن القيم أن هذه الأنشودة رددت برجوع النبي ﷺ من تبوك ، و لكن المنصور فوري دلل بحجج كثيرة على صحة الرواية المشهورة بأنها كانت تعبيرا عن ابتهاج الأنصار باستقبال النبي صلى الله عليه و سلم في المدينة المنورة عند هجرته الشريفة[1] .

المبايعة على الموت

لم يقتصر فعل النبي صلى الله عليه و سلم في المدينة على بناء المسجد وإصلاح ما بين الأوس و الخزرج و المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار ، و إبرام المعاهدة مع اليهود ، و كلها أعمال جليلة النفع عظيمة القيمة ، و إنما عمد بعد ذلك إلى بناء النفوس المؤمنة التي تتخلص من كل رواسب الجاهلية و تنشئ المجتمع المثالي على مدار التاريخ ، مجتمعا يقوم على تزكية الأنفس ، وتربيتها على المكارم و الود والشرف و العبادة و الطاعة .

سأله رجل أي الإسلام خير ؟

[1] الرحيق المختوم

فقال ﷺ : تطعم الطعام ، و تقرئ السلام على من عرفت و من لم تعرف
وكان يقول : لا يدخل الجنة من لم يأمن جاره بوائقه .
و يقول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه .
و يقول : المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه و لا يسلمه ، و من كان في حاجت أخيه كان الله في حاجته ، و من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة .
وكان يقول : سباب المسلم فسوق ، و قتاله كفر .
و يقول : إماطة الأذى عن الطريق صدقة .
و وضع ميثاقا للتآخي بين المسلمين و كان يقول فيه :

هذا كتاب من محمد صلى الله عليه و سلم بين المؤمنين و المسلمين من قريش و يثرب و من تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم .إنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، و هم يفدون عانيهم بالمعروف و القسط بين المؤمنين ، و كل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، و كل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف و القسط بين المسلمين
إن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .
إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ــ أي استنجد لرفع ظلم وقع عليه ــ أن أيديهم عليه جميعا و لو كان ولد أحدهم .
لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر .
لا ينصر كافر على مؤمن .
ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .
و إن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء و عدل بينهم .
و إن المؤمنين يبيئ بعضهم على بعض بما نال دمائهم في سبيل الله .

و إنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا و لا يؤويه ، و أن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله و غضبه يوم القيامة ، و لا يؤخذ منه صرف و لا عدل .

و إنكم مهما اختلفتم من شيء فإن مرده إلى الله عز و جل و إلى محمد ﷺ.

و بجانب ذلك كان يحثهم على الاستعفاف و الصبر ، و يحدثهم بفضائل العبادات و يبلغهم بالوحي النازل من السماء ليكون في ذلك حثا لهم على معرفة واجبات الداعية و تبعات الدعوة .

و بمثل هذه التربية تكاملت مقومات الشخصية المؤمنة التي تواجه التيارات المعاكسة ، فتردها على أعقابها ، و تقابل الموت مستبشرة لأنها تبذل النفس في سبيل الله ، و تنتظر الجنة جزاء على ذلك .

بهذه التربية الإيمانية واجه النبي ﷺ كيد الكائدين ، و هم كثير ، و لكن حسبه في مواجهة كثرتهم الله و من اتبعه من المؤمنين.

أرسل المشركون في مكة عقب هجرة النبي صلى الله عليه و سلم كتابا إلى عبد الله بن أبي ين سلول يقولون فيه : إنكم أويتم صاحبنا ، و إنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، و نستبيح نسائكم [1].

يقول عبد الرحمن بن كعب في رواية أبي داود : فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي و من معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال الرسول ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم و فقال : لقد بلغ و عيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت قريش تكيدكم بأكثر مما تبدون أن تكيدوا بأنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم أو إخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا .

و أخرج البخاري أن قريشا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم : لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، سنأتيكم فنستأصلكم ، و نبيد خضراءكم في عقر داركم.

[1] التاريخ الإسلامي ، الرحيق المختوم

و قد تأكد النبي ﷺ من مكائد قريش فكان يبيت ساهرا أو في حراسة أصحابه ، حتى نزل ﴿ و الله يعصمك من الناس ﴾ فأخرج رأسه من القبة و قال : يا أيها الناس ، انصرفوا عني فقد عصمني الله عز و جل .

و لم يكن الخطر مقتصرا على رسول الله ﷺ بل على المسلمين كافة .

فقد روى أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله صلى الله ﷺ و أصحابه المدينة و آوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، و كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح و لا يصبحون إلى به .[1]

و في هذه الأثناء نزل الإذن بالقتال ، و بدأت المناوشات بين المسلمين و المشركين على هيئة هجمات يقوم بها المشركون على المدينة ، و سرايا وغزوات ، يواجهها أو يقودها النبي صلى الله عليه و سلم .

وقد اتفق المؤرخون على أن الجيش الذي يقوده النبي ﷺ يسمى غزوة ، حارب فيها أم لم يحارب ، و أن ما خرج فيه أحد قادته يسمى سرية .

و كان النبي ﷺ يحاول تأمين سيطرة المسلمين على طريق التجارة بعقد معاهدات و أحلاف ،أو اتفاقيات عدم اعتداء بينه و بين القبائل التي تقطن حول هذه الطرق ،كما فعل مع اليهود أول مقدمه المدينة ثم مع جهينة و بني ضمرة وخزاعة و غيرها من القبائل .

وقد أدت هذه الغزوات و السرايا إلى غزوة بدر الكبرى التي منح الله المسلمين فيها نصرا عزيزا على أهل مكة تعجب له المشركون و المسلون على حد سواء ، ولكن تعجب المشركين كان سببه أنهم فقدوا ساداتهم و كبراءهم ، و أصيبوا بهزيمة ثقيلة على يد قلة من المسلمين في العدد و العتاد ، و عجب المسلمون من آيات الله في هذه الغزوة حيث قتل لهم و رمى عنهم .

[1] البداية والنهاية / ٣

و في بدر قال الأنصار و منهم سهل بن حنيف للنبي صلى الله عليه و سلم : اطعن حيث شئت ، و صل حبل من شئت ، و اقطع حبل من شئت ، و خذ من أموالنا ما شئت ، و أعطنا ما شئت ، و ما أخذت منا أحب إلينا مما تركته ، و ما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، وو الله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .[1]

أحرق الغيظ أكباد المكيين مما أصابهم في بدر ، و منعوا البكاء على

قتلا هم حتى يقوموا بحرب شاملة ضد المسلمين تشفي الغيظ ، و تروي غلة الحقد ، و تدرك الثأر ، فجمعوا أموال القافلة التي نجت في بدر ، و فتحوا باب التطوع للتدريب و الاستعداد ، و عقدوا العزم على معركة كبيرة ، و في الوقت نفسه كان بعض شياطينها يدبر لأعمال فردية تنال من النبي ﷺ فيضعف عود الدعلة إلى الله .

ذكر ابن هشام : جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بقليل ، و كان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذي النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه في مكة ، و كان ابنه وهب بن عمير في أسرى بدر ، فذكرا أصحاب القليب و مصابهم .

فقال صفوان : و الله ما في العيش بعدهم خير .

قال عمير : صدقت و الله ، أما و الله لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى اقتله. فإن لي قبلهم علة، و كان ابني أسيرا في أيديهم .

قال صفوان : علي دينك ، أنا أقضيه عنك ، و عيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء و يعجز عنهم .

فقال له عمير : اكتم عني شأني و شأنك .

[1] - البداية والنهاية / ٣

قال صفوان : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ و حشي بالسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب و هو في نفر من المسلمين يتحدثون عما أكرمهم الله به يوم بدر ، فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير ، ما جاء إلا لشر ، ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحا سيفه.

قال : فأدخله علي .

فأقبل عمير فلببه عمر بحمائل سيفه ، و قال لرجال من الأنصار الذين منهم سهل بن حنيف ، ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده و احذروا من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رآه النبي صلى الله عليه و سلم و عمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه ، قال :أرسله يا عمر، ادن يا عمير فدنا ، و قال : أنعموا صباحا .

قال النبي ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، السلام تحية أهل الجنة .

قال : ما جاء بك يا عمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه .

قال : فما بال هذا السيف في عنقك ؟

قال : قبحها الله من سيوف ، و هل أعنت عنا شيئا ؟

قال : اصدقني ما الذي جئت به ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت و صفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين علي و عيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل صفوان بدينك و عيالك ، على أن تقتلني ، و الله حائل بينك و بين ذلك

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا من خبر السماء ، و ما يترل عليك من الوحي ، و هذا أمر لم يحضره إلا أنا و صفوان فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني إلى الإسلام ، وساقني هذا المساق .

ثم تشهد شهادة الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :

فقهوا أخاكم في دينه ، و أقرئوه القرآن ، و أطلقوا له أسيره .

و أما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر ، و كان يسأل الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب بإسلامه ، فحلف ألا يكلمه أبدا ، و لا ينفعه بنفع أبدا .

ورجع عمير إلى مكة فأقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يده خلق كثيرون [1].

و كان عمير آخر من أسلم في عائلته الصغيرة حيث سبقه ابنه طليب بن عمير المهاجر البدري ، وسبقته كذلك زوجته وهي أروى بنت عبد المطلب عمة النبيﷺ .

و حين استدار العام كانت قريش قد أتمت استعدادها و خرجت في جيش جرار لتدرك الثأر من المسلمين ، و حين انتصر رأي المسلمين الذين يحبذون الخروج إلى أحد لملاقاة المشركين ، فإن النبي ﷺ قسم جيشه إلى ثلاث فرق :

- كتيبة المهاجرين ، و حمل لواءها مصعب بن عمير .
- كتيبة الأوس ، و حمل لواءها أسيد بن حضير .
- كتيبة الخزرج ، و حمل لواءها الحباب بن المنذر .[2]

و خرج جيش الألف مقاتل ، ليقابل جيش الثلاثة آلاف ، ثم شاء الله أن ينقي جيش النبي ﷺ من المنافقين ، ففي بعض الطريق ، و قبل طلوع الفجر بقليل و على مقربة من جيش المشركين انسحب عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش و قال : ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ لقد ترك محمد رأيي بالبقاء في المدينة فأطاع غيري ،

[1] - البداية والنهاية / ٤

[2] - إمتاع الأسماع ١ / ٢٣٦

وحاول عبد الله بن حرام أن يثنيهم ، فسار خلفهم و نادى عليهم ووبخهم على الرجوع في هذا الموقف و ذكرهم بقول الله تعالى : ﴿ **تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا** ﴾ .

فقال له ابن سلول : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع .

فتركهم عبد الله بن حرام قائلا : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه .

و في هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَو ادْفَعُوا، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لا تَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ [1].

هذا موقف المنافقين أما المؤمنون فقد برزوا للنبي ﷺ يبايعونه على الموت ، يقول المؤرخون عن سهل بن حنيف ، و بايع النبي صلى الله عليه و سلم على الموت في أحد[2]

ووقف يصد عن النبي ﷺ هجمات الأعداء مع القمم الشامخة من المهاجرين و الأنصار مثل أبي دجانة و عكاشة و سعد بن أبي وقاص و طلحة بن عبيد الله وأبي طلحة و علي و أبي عبيدة ، و أنس بن النضر .

و كان سهل يستهلك كثيرا من الأسهم لسرعته الفائقة في الرمي فينفذ ما معه من الأسهم ، فيقول النبي ﷺ لفريق الإمداد ، نبلوا سهلا فإنه سهل .

و بعد انتهاء المعركة أعطى النبي صلى الله عليه و سلم سيفه لابنته فاطمة لتغسل عنه الدم ، و أعطاها علي سيفه ، و قال : نظفي هذا ، فقد صدقني اليوم

فقال له النبي صلى الله عليه و سلم إن كان سيفك قد صدق ،

فقد صدقت كذلك سيوف أبي دجانة و أبي طلحة و سهل بن حنيف .[1]

[1] - آل عمران / ١٦٧

[2] الإصابة ٤ / ٢٧٤

لم ترفع راية لرسول الله ﷺ إلا و كان تحتها سهل بن حنيف ، و لم يشهد رسول الله ﷺ مشهدا و لا غزوة إلا و سهل بن حنيف معه مقاتلا شجاعا ، ومجاهدا نبيلا ، و لم يجلس رسول الله صلى الله عليه و سلم مجلسا يعلم فيه أصحابه إلا و كان بينهم سهل بن حنيف .

عرف عن سهل بن حنيف شجاعته و إقدامه ، و عرف عنه جمال نفسه وصفائها بمثل جمال خلقته الذي كان موضع حسد من إخوانه ، و قد كان مع رسول الله ﷺ في غزاة فمر بنهر فاغتسل فيه ، فمر به رجل من الأنصار فقال : ما رأيت كاليوم و لا جلد مخبأة – يصف نضرة جسم سهل بجسم فتاة ناعمة في خدرها – و تعجب من خلقته فلبط به –فوقع سهل صريعا مريضا لساعته ، فحمل إلى النبي ﷺ محموما ، فسأله فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه و سلم : ما يمنع أحدكم إذا رأى من أخيه ما يعجبه في نفسه أو ماله فليبرك عليه – أي يدعو له بالبركة – فإن العين حق .[2]

و لقد كان لسهل من اسمه نصيب فهو رجل جمع إلى قوة القلب ، و صفاء الإيمان و جمال الخلقة وسهولة المألف و سماحة المعاملة ، و حسن العشرة حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا طلبه لأمر يقول :

ادعوا لي سهلا غير حزن ، و الحزن هو الأرض الوعرة ، كما جاء في دعاء النبي ﷺ : اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا ، و أنت إن شئت جعلت الحزن سهلا، أي إذا شئت ذللت الأرض الوعرة فجعلتها سهلا .

و روى سهل بن حنيف عن الرسول ﷺ في معنى السهولة و اليسر

ما أخرجه أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا تشددوا على أنفسكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم ، و ستجدون بقاياهم في الصوامع و الديارات .

[1] – إمتاع الأسماع / ١ ، ابن هشام / ٣ ، أسد الغابة ٢ / ٣٦٥

[2] – الطبقات الكبرى ٣ / ٤٧٢

و دخل سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف هو و أبوه على أنس بن مـالك في المدينة في زمان عمر بن عبد العزيز و هو أمير المدينة ، فإذا هو يصلـي صـلاة خفيفة دقيقة كأنها صلاة مسافر أو قريبا منها ، يقول سهل الحفيد : فلما سلم قـال أبي : يرحمك الله ، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أو شيء تنفلته ؟

قال : إنها المكتوبة ، و إنها لصلاة رسول الله ﷺ ، ما أخطأت منها إلا شـيئا سهوت عنه .

فقال : إن رسول الله ﷺ كان يقول : لا تشددوا علـى أنفسـكم فيشـدد عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليـهم ، فتلـك بقايـاهم في الصوامع والديارات ، ﴿ وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ .[1]

قال : ثم غدا من الغد ، فقال ، ألا تركب لتنظر و تعتبر ؟

قال : نعم .

فركبوا جميعا ، فإذا هم بديار قد باد أهلها ، و انقضوا ، و فنوا ، خاوية على عروشها ، فقال : أتعرف هذه الديار ؟

قلت : ما أعرفني بها و أهلها ، هذه ديار قوم أهلكهم البغي و الحسـد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات ، و البغي يصدق ذلك أو يكذبه ، و العـين تـزني ، و الكف و القدم و الجسد و اللسان ، و الفرج يصدق ذلك أو يكذبه .

و من أجل ذلك عندما حسد عامر بن ربيعة سهل بن حنيف في القصة الـتي مرت آنفا ، قال النبي صلى الله عليه و سلم : علامة يقتل أحدكم أخاه ، يعني بالعين ثم أمره أن يغتسل ، و أخذ هذا الماء فغسل به وجهه و يديه و مرفقيـه و ركبتـه وأطراف رجليه ، و داخلة إزاره في قدح ، ثم صب على سهل ، فراح مع الناس مـا به من بأس .

[1] - الحديد /٢٧

مع الحق

ثم امتحن الله المسلمين امتحانا شديدا بالفتنة التي أودت بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، و هي الفتنة التي تركت الحليم فيها حيران ، و أضلعت الأحلام و ذهبت بالألباب ، و قسمت خير القرون ما بين خصوم يتقاتلون أو معتزل للفتنة لشدة الغيم أو حلكة الظلام ، و تقف أم المؤمنين في مواجهة ابن عم النبي ﷺ و خليفة المسلمين ، و يقف الزبير و طلحة في مواجهة علي و عمار وسهل بن حنيف و غيرهم ، و في يوم الجمل يولى أمير المؤمنين سهلا على المدينة عاصمة الخلافة لأنه الذي يقدر على ضبطها أو إحكام السيطرة عليها .

و لما دنت الصفوف بعضها من بعض يوم الجمل عند البصرة ، ينادي علي طلحة و الزبير ، و هو على بغلة رسول الله ﷺ ، فيقول للخصوم : ادعوا لي الزبير فإني علي ، فأقبل الزبير على علي حتى اختلفت أعناق دابتيهما فقال علي : نشدتك الله يا زبير ، أتذكر يوم قابلك النبي ﷺ في بني غنم فنظر إلي وضحك ، وضحكت إليه ، فقلت لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك النبي ﷺ : يا زبير، ألا تحب عليا ؟

فقلت : و ما يمنعني من حبه ، ألا أحب ابن خالي و ابن عمي و على دينه .

فقال : أما و الله لتقاتلنه و أنت له ظالم .

فقال الزبير : لقد ذكرتني ما نسيته ، و لن أقاتلك أبدا .

ثم رجع الزبير و نزل واديا يقال له وادي السباع ، فاتبعه رجل يقال له : عمرو بن جرموز فقتله ، و أخذ رأسه و ذهب به إلى علي و رأى أن ذلك يجعل له حظوة عنده ، فأستأذن ، فقال علي : لا تأذنوا له و بشروه بالنار و لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار ، ثم أمسك علي سيف الزبير

الذي جاء به القاتل و قال : هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ .[1]

و أما طلحة فقد وعظه علي ، و أثرت فيه الموعظة و تذكر الصحبة و أنه وعلي من العشرة المبشرين بالجنة ، فقد تأخر و لكن سهما أصابه في ركبته و في الفرس جعلت الفرس يجمح به حتى كاد يلقيه ، فنادى : إلى عباد الله ، فأدركه مولى له فركب وراءه و أدخله البصرة فمات بدار فيها ، و ذهب إليه علي فمسح التراب عن وجهه و قال : رحمة الله عليك أبا محمد ، يعز علي أن أراك مجدلا تحت نجوم السماء ، ثم قال : إلى الله أشكو عجري و بجري ، و الله لوددت أني كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

وانتصر أمير المؤمنين في موقعة الجمل ، و بايعه أهل البصرة و اعتذر إليه بعض من كانوا خصوما له و قبل عذرهم .

و لكن الأمر خرج من سوء إلى أشد منه إذ تزعم معاوية بن أبي سفيان بالشام مطالب القصاص من قتلة عثمان ، فتحرك أمير المؤمنين ليواجه الشاميين ، و هناك أدركه سهل بن حنيف ليصلح بين الخليفة و عامله قيس بن سعد ، فنجح في مسعاه و لكنه رغب في أن يجاهد مع أمير المؤمنين فحضر معه وقعة صفين .

و في صفين تكاثرت غيوم الفتنة ، و تقاتل الناس في عماء ، و أصبح علي ذات يوم و صلى الفجر ثم قام يدعو ، فقال : اللهم رب السقف المكفوف المحفوظ، الذي جعلته سقف لليل و النهار ، و جعلت فيه مجرى الشمس و القمر و منازل النجوم ، و جعلت فيه سبطا من الملائكة لا يسأمون العبادة ، و رب الأرض التي جعلتها قرارا للأنام و الهوام و الأنعام ، ما لا يحصى مما نرى و لا نرى من خلقك العظيم ، و رب الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، و رب السحاب المسخر بين السماء و الأرض ، و رب البحر المسجور المحيط بالعالم ، و رب الجبال

[1] - البداية والنهاية

الرواسي ، التي جعلتها للخلق أوتادا ، و للخلق متاعا إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا الفساد و البغي و سددنا للحق ، و إن أظهرتهم علينا فارزقني الشهادة ، و جنب بقية أصحابي الفتنة .

كانت الرؤية واضحة أمام عين أمير المؤمنين ، و أمام قلة من المقاتلين معه منهم سهل بن حنيف ، الذي وصفها الوصف الصحيح فيما رواه عنه الشيخان أنه قال يوم صفين : أيها الناس ، اتهموا الرأي على الدين ، فلقد رأيتني يوم أبي جندل في الحديبية ، و لو أقدر لرددت على رسول الله صلى الله عليه و سلم أمره ، و والله ما حملنا سيوفنا على عواتقنا منذ أسلمنا لأمر يقطعنا إلا أسهل بنا إلى أمر نعرفه ، غير أمرنا هذا فإنا لا نسدد منه خصما إلا انفتح لنا غيره لا ندري كيف نبالي له .

و كان سهل بن حنيف على أهل المدينة في القتال ، و رأى خديعة الشاميين حين أيقنوا بالهزيمة فرفعوا المصاحف على الأسنة ، و لم ينخدع بهم علي ، و طلب من أصحابه أن يواصلوا القتال ، و إنما هي هذه الجولة ثم تخمد الفتنة ، و لكن أكثرهم انطلت عليه الخديعة و كرهوا أن يقاتلوا قوما يرفعون المصاحف ، و اضطر أمير المؤمنين أن يوقف القتال ، و كان النصر أقرب من شراك نعل أحدهم إليه ، وكره جماعة من أصحاب علي وقف القتال ، و خرجوا على الجماعة ، و ناصبوا عليا و الشاميين العداء و كان عداؤهم لعلي أشد ، و هم الخوارج الذين قالوا : لا حكم إلا لله ، و قال علي يرد عليهم : كلمة حق يراد بها الباطل .

و كما كانت الرؤية واضحة أمام أمير المؤمنين بشأن الخوارج ، فقد كانت واضحة كذلك عند سهل بن حنيف ، ففي الصحيحين عن بسر بن عمرو ، قال : دخلت على سهل بن حنيف ، فقلت : حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الحرورية – الخوارج – فقال : أحدثك ما سمعت من النبي ﷺ ، لا أزيدك عليه شيئا ، سمعت رسول الله ﷺ يذكر قوما يخرجون من هاهنا – و أشار بيده نحو العراق – يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فقال : قلت : هل ذكر لهم علامة؟

قال : هذا ما سمعت لا أزيدك عليه .[1]

قاتل سهل مع علي في النهروان ، و غيرها من المواقع ضد الخوارج كما قاتل معه في صفين ، و كان في كل معاركه يعرف بيقين أنه ينصر الله في نصره للخليفة ، و للجماعة و للحق ، و معه دليله في كل مشهد و موقعة ، ليس بينه و بين أحد ممن يقاتلهم ضغينة و لا بغضاء ، و ليس هو ممن يحملها أو ينتصر لها ، و ليس بينه و بين أحد منهم عداوة و لا خلاف ، و قد اعتاد أن يكون لخلقه من اسمه نصيب ، فهو سهل المعاشرة ، سمح النفس ، أجرد القلب فيه مصباح يزهر .

لقد أرسله أمير المؤمنين إلى الكوفة بعد أن كسر شوكة الخوارج ، و أرجع كثيرا منهم إلى حظيرة الجماعة ، فولى عددا من خاصته و أهل ثقته على الأمصار البعيدة لكي يحكموا له سلطان الدولة في هذه البلاد ، و أرسل سهل بن حنيف إلى فارس ، لكن مروجي الفتن كانوا قد فروا إليها فعبئوا الناس ضد الخليفة ، وأخرجوا سهلا ، فرجع إلى الكوفة ، فأشار بن عباس على أمير المؤمنين أن يولي زيادا عليهم ليأخذهم بالحزم و الشدة ، فاستطاع أن يعيد هيبة الدولة ، و أن يردوا ما عليهم من الخراج .

بعد رجوع سهل بن حنيف من فارس في عام ثمانية و ثلاثين ، و كأنما عاد ليلبي نداء ربه ، و تستقبله الجنة التي تزينت له واشتاقت إليه .

مات سهل بن حنيف سنة ثمان و ثلاثين للهجرة ،

و صلى عليه أمير المؤمنين علي فكبر عليه ستا ، و قال : إنه من أهل بدر .[2]

---

[1] – البداية والنهاية

[2] – الطبقات الكبرى ٣ /ق ٤٧٣ ، أسد الغابة ٢ / ٣٦٥ ، الإصابة ٤/ ٢٧٤

زياد بن لبيد

أبوه خزرجي من بني بياضه فيلقب زياد البياضي .
وأمه عمرة بنت عبيد من بني عمرو بن عوف الأوسي[1] .
ويكني أبا عبد الله فجمع له شرف النصرة من جانبيه .

شهد بيعة العقبة الثانية مع السبعين وإذا تمت له الولادة الجديدة بالإسلام فإنه كره كل مظاهر الجاهلية و أنف من حميتها و أخلاقياتها وأصنامها فكان يعدو على أصنام بني بياضة يكسرها هو وفروة بن عمرو[2] الذي سيكون لنا شرف لقائه بعد إنشاء الله .

أشرب زياد حلاوة الإيمان في قلبه واستشعر عبأه وحمل همه ولعله أمعن التدبر في أمر مصعب بن عمير الذي حمل النور إليهم في يثرب وأسره ذلك الألق الوضيء الذي يتلألأ على وجهه وينهمر في كلماته فيفعم النفوس بالعزة و المشاعر بالرفاهة والقلوب بالقوة فمن أي معين يمتح مصعب ؟ ومن أي مورد عذب يستقي دلوه ؟ هل غير النبي ﷺ الذي أخذ منه مصعب وارتوى من منهله؟ هل كلمات مصعب غير صدى لكلماته ؟ وهل بهاء مصعب غير انعكاس لبهائه ؟ وهل عزة مصعب وثبات جنانه وقوة يقينه إلا قبضة من عزته وثبات جنانه وقوة يقينه ؟

كبر على زياد أن يعيش آمنا في سرية معافى في بدنه ، وحبيبه وسيده ومعه المؤمنون في مكة يكابدون ويعانون من كيد المشركين ، ويئنون من وطأة جبروقم وقسوة قلوهم ، وإذا كان قد بايع على النصرة والجهاد في العقبة الثانية ، فإنه لن يصبر حتى يهاجر المسلمون إلى المدينة، فلماذا لا يهاجر هو إلى مكة ، فيكثر به عدد المسلمين ، ويشاركهم همهم ، فيكون قد أوفى بعهده ، ووفى ببيعته ، ومن ثم يقبس

[1] – أسد الغابة ٢ / ٢٧٣
[2] – الطبقات الكبرى ٣ / ٢٥٦

من نور نبيه ، ويتعلم منه الجلد والاعتصام بحبل الله ، والصبر على البلاء ، ويعـــرف من دينه ما يواجه به مصاعب الحياة ، وما يحقق به حسن الثواب في الآخرة .

ولزم زياد رسول الله في مكة حتى هجرته ، فتبعه إلى المدينة فكان يقال ، زياد مهاجري أنصاري [1]، وواحد منهما تكفل له رضا الله ، ومن بشره رب العزة بالرضا عنه ، فإنه لا يسخط عليه بعد ذلك أبدا .

شهد زياد بدرا وأحدا والخندق و المشاهد كلها ورأى الناس يدخلون في ديـن الله أفواجا وتفتقت مواهبه وقدرته على الحساب والإمارة وحفظ الأمانة ومن يحفـظ أمانة دينه فإنه حفيظ عليم .

ثم أقبلت سنة عشر للهجرة وقد أقبلت وفود العرب من أنحاء الجزيرة تعلـــن ولاءها وتسلم قيادها و القيادة في المدينة ترسل الحكام وولاة الصدقات على كل مـا أوطأ الإسلام من البلدان ،وكانت حضرموت هي مجال عمل زياد بن لبيد أخي بـني بياضة . وعلى كندة المهاجرين بن أبي أمية بن المغيرة ،ومرض المهاجر فتأخر عـــن الذهاب فكان زياد يقوم بعمله مع ما هو مكلف به

وفي السنة الحادية عشر من الهجرة المباركة مات النبي ﷺ وكـــان الأســود العنسي قد تنبأ في اليمن في حياته، وقتل باذام الحاكم المسلم ،ولكن فتنته لم يستشـر كالنار في الهشيم إلا قبل موت النبي ﷺ بقليل، وكتب إلى أمراء المسلمين يقـــول : أيها المتوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ،ووفروا ما جمعتم ،فنحـــن أولى به و أنتم على ما أنتم عليه ،ثم انقض بمن تابعه يقتحم الأقاليم ويقتل العمـــال ، حتى فر من أمامه معاذ وأبو موسى ، وثبت ملكه واستغلظ أمره وتابعته القبـــائل أو حذت حذوه، متربصة بعمالها، تستدرجهم للقتال لتغلبهم على أمرهـــم ،وعاملـــه المسلمون بالتقية ،وعامله أهل الردة بالكفر و الرجوع عن الإسلام ،فأرسل النبي ﷺ إلى عماله باليمن كتابا يأمرهم فيه بالقيام على دينهم ،و النهوض في العمل لحـــرب

[1] – أسد الغابة ٢ / ٢٧٣

الأسود إما غلية وإما مصادمة وإن يبلغوا عنه من رأوا فيه نجدة ،ودينا ونهض معـــاذ بتبليغ أمر الرسالة إلى المسلمين في الوقت الذي اشتد فيه أمر الكذاب، وأثخـــن في الأرض ،واستخف بمن مكنوا له في الأرض و أهمهم ثلاثة : قيس بن عبد يغــوث ، وكان قائد الجند ،وفيروز ودازويه، وأسند إليهم أمر الأبناء ،وهم الفرس الذين كانوا يحكمون أنحاء اليمن ،وكان يعاونهما في ذلك جشيش الديلمي وبعد أن تــزوج أزاد ابنة عم فيروز ،واستخف بهؤلاء المعاونين فقد عرض المسلمون كتاب النبي ﷺ على قيس بن عبد يغوث وكان يخشى على نفسه من أن يقتله الأسود حيث لم يتورع عن قتل أحد، فكأنما وقع الكتاب من السماء على قيس وكان في غم وضيق من أمـره ، فاستغفر عن ضلاله ،وقرر التكفير عن ذنبه بالعمل على التخلص من الأسود مثل مـا مكن له ، فجعل يكاتب من يثق فيهم ، ولكن شيئا من الريبة داخل الأسود فدعـــاه وقال له يا قيس ، أتعرف ماذا جاءني من الوحي عنك ، قال لا ، قال الكـــذاب ، أوحى إلي الملك قائلا ، يا أسود .. يا أسود عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار في العز مثلك مال ميل عدوك ، وحاول ملكك ، وأضمـر الغدر إنه يقول ، يا أسود .. يا أسود ، يا سوأة ، يا سوأة ، اقطف قنته ، وخذ مـن قيس أعلاه وإلا سلبك أو قطف قنتك ، فحلف قيس بالأسود وبإلهته وقال : كـذب وذي الحمار لأنت أعظم في نفسي وأحل عندي من أن أحدث بك نفسي ، قـــال الأسود ، ما أجفاك ، أتكذب الملك ؟ [1]قد صدق الملك ، لكنني عرفت الآن أنــك تائب مما أطلع عليه منك ، فاذهب .

تقابل قيس مع أصحابه الثلاثة ، وقص عليهم ما حدث ثم سـألهم الـرأي ، فقالوا نحن على حذر منه ، فإنهم في ذلك إذ أرسل إليهم الكذاب ، فقال لهم : يـــا جوشيش ، ويا فيروز ويا داذويه ألم أشرفكم على قومكم ، ألم يبلغني عنكم ، فقالوا له : أقلنا مرتنا هذه (سامحنا ولن نعود) ، فقال : لا يبلغني عنكم فأقيلكم ، وبقـى

[1] - البداية والنهاية ٧ / ١٧

الأسود على ارتياب منهم وهم على ارتياب منه حتى جاءهم كتب من بعض القبائل تناصرهم ، فعلموا أن الغيلة أفضل من التصادم لكثرة أتباعه .

يقول جيشيش بن الديلمي ، دخلت على آزاد زوجة الأسود فقلت : يا ابنة عم ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك وطأطأ في قومك القتل ، وسفل بمن بقى منهم ، وفضح النساء ، فهل من ممالأة عليه ؟ فقالت : على أي أمره ، قلت : إخراجه أو قتله ، قالت : نعم والله ما خلق الله شخصا أبغض إلى منه ، ما يقوم لله على حق ، ولا ينتهي له عن حرمة ، فإذا عزمتم فأعلموني أخبركم بمأتى هذا الأمر ، وخرجت إلى الثلاثة فأخبرتهم خبرها ، فبينما نحن كذلك جاء رجل يطلب قيسا لمقابلة الأسود ، فدخل عليه قيس ومعه عشرة رجال أشداء من مذحج وهمدان ، فقال له الكذاب : أمني تتحصن بالرجال ؟ ألم أخبرك الحق وتخبرني الكذابة ، يقول : يا سوأة ، إلا تقطع من قيس يده يقطع قنتك العليا ، فقال قيس يلاينه ، إنه ليس من الحق أن أقتلك وأنت رسول الله ، فمر بي بما أحببت فأما الخوف والفزع فلا ، اقتلني فموتة أهون علي من موتات أموتها كل يوم ، فرق له الكذاب وأخرجه .

يقول جشيش : خرج إلينا قيس وقال : اعملوا عملكم ، فبينما نحن كذلك إذ طلع علينا الأسود في جمع فقمنا مثولا له وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير ، فقام وخط خطا فأقيمت الأنعام من ورائه ، وقام من دونها فنحرها غير محبسة ولا معقلة ما يقتحم الخط منها شيء ، ثم خلاها فجالت إلى أن زهقت ــ يهددهم بذلك ــ فما رأيت أمرا كان أفظع منه ، ولا يوما أو حسن منه ، ثم قال : أحق ما بلغني عنك يا فيروز ــ وبوأ له الحربة ــ لقد هممت أن أنحرك فأتبعك هذه البهيمة ، قال فيروز : اخترتنا لصهرك ، وفضلتنا على الأبناء ، فلو لم تكن نبيا ما بعنا نصيبنا منك بشيء ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة ودنيا ؟ لا تقبلن علينا أمثال ما يبلغك فإنا بحيث تحب ، قال : أقسم هذه الحيوانات المذبوحة على من تحب فأنت أعلم بمن هاهنا .

ولكن واحدا من الناس سمع الأسود يقول لبعض أصحابه أنا قاتلهم غدا ، فأسرعوا إلى آزاد يطلبون عونها عليه فقالت إنه دجج نفسه بالحرس والسلاح ، وليس له منفذ إلا ذلك الجانب من الجدار ، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه وسوف أعد لكم سراجا وسلاحا .

يقول حشيش : خرجت من عند آزاد فتلقاني الأسود فقال لي : ما أدخلك علي ووجأ رأسي حتى سقطت وكان شديدا فصاحت آزاد به ولولا ذلك لقتلني ، فقالت : ابن عمي جاءني زائرا فقصرت بي ، فقال : اسكتي لا أبالك ، فقد وهبته لك . وتسلل فيروز إلى البيت فخلع بطانة الجدار ثم نقبوا البيت ، ودخلوا عليه وكان فيروز أشجعهم فكانوا يتقون به فدخل الغرفة وعاجله فأخذ برأسه ودق عنقه وأخذت زوجته بشعره ، ومر فيروز بالشفرة على حلقة فخار كأشد خوار ثور سمعته قط ، فابتدر الحرس فقالت آزاد : اذهبوا فإن النبي يوحي إليه .

وبلغ الخبر في الليلة نفسها من رب العزة إلى النبي ﷺ فقال يبشر المسلمين قتل العنس البارحة قتله رجل مبارك من أهل بيت مياركين

قيل : ومن ؟.

قال : فيروز ، فاز فيروز . ومات النبي ﷺ بعد مقتل العنسي بأيام قليلة [1].

وبعد أن تولى أبو بكر رضي الله عنه خلافة المسلمين ،استنكف كثير من العرب أن تحكمهم قريش ،ومنع كثير منهم دفع الزكاة ،وتعللت كل قبيلة بأمر لتخلع ربقة الإسلام ،و لم تنج حضرموت وعليها زياد بن لبيد من هذه الردة ، فاختلفت على ناقة من الصدقة قد وسمت بميسم الصدقة ،فقال أصحابها هذه ليست للصدقة ،وإنما كنا نريد غيرها ،فعرف زياد أن هذه علة للنكوص ،فرفض أن يسلمها لهم ،فجاءه أبو السميط بن معد يكرب وقال له أطلق البكرة وخذ بعيرا مكانها فإنما هو بعير مكان بعير، فقال زياد : ما إلى ذلك سبيل فقال أبو السميط ذلك إذا كنت

[1] – الكامل لابن الأثير ، البداية والنهاية

يهوديا ،وذهب إلى الناقة فأطلقها ،ووقف دونها يحميها ،فأمر زياد بعض رجاله فأمسكوا الناقة واعتقلوها ،وكتفوا أبا السميط ومن كان معه ،وانقسم الناس فغضبت حضرموت و السكون لزياد ،وغضبت بنو معاوية لأبي السميط ،وتربص كل فريق بالفريق الآخر ،فأرسل زياد إلى بني معاوية يخيرهم : إما أن يضعوا السلاح، و إما أن يؤذنوا بالحرب .

فقالوا : لن نضع السلاح حتى ترسلوا أصحابنا ،

فقال زياد : لا يرسلون إليكم حتى تنفضوا و أنتم صغرة قمأة يا أخباث الناس ألستم سكان حضرموت وجيران السكون ؟ فما عسيتم أن تكونوا وتصنعوا في دار حضرموت وفي جنوب مواليكم ،فلم يستجيبوا لشيء حتى أغار عليهم ليلا فقتل منهم وفر الآخرون، وقال زياد يصف هذا الموقف :

وكنت امرءا لا أبعث الحرب ظالما ... فلما أبوا سامحت في حرب حاطب

ولما هرب القوم خلى سبيل من كان أسرهم ،فذهبوا يحرضون قومهم ،وتنادوا بمنع الزكاة، وخرج بنو معاوية يمكنون لأنفسهم في أنحاء حضرموت ،وقد أجمعوا على الردة وكان من أشد زعمائهم خطرا الأشعث بن قيس و السمط بن الأسود وبنوه ،إلا أن شرحبيل بن السمط وابنه كرها هذا التدبير وقالا : إن هذا لقبيح فكيف الرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل و القبيح ،اللهم إنا لا نمالىء قومنا على هذا، وإنا لنادمون على مجامعتهم إلى يومنا ،ثم خرجا من بين قومهما ،حتى أتيا زيادا فانضما إليه، ثم نصحاه بالهجوم ليلا على المرتدين من قومهما لأن أقواما قد انضموا إليهم من شذاذ حضرموت ،ونحن نخشى إن تراخيت أن يرفض الناس عنا إليهم ،والقوم غارون لمكان من أتاهم ،راجون لمن بقي و لم يرتد أن يلحق بهم فسمع زياد لنصحهم، وطرقوا المرتدين في محاجرهم ،فوجدوهم حول نيرانهم جلوسا فقتلوا و أسروا وسبوا وهرب من أطاق الهرب، وعاد زياد بالسبي و الأموال وأخذوا طريقا يفضي إلى عسكر الأشعث بن قيس ،فاستغاث به النسوة ،وقلن : يا أشعث يا أشعث، خالاتك ،خالاتك ،فثار الأشعث مع قومه فخلصهم ،وعلم أن زيادا وجنده

إذا بلغهم ذلك لم يقلعوا عنه، فجمع القبائل من حوله، وأعد عدته ،وثبت أصحـــاب زياد معه وكتب إلى المهاجر أن يعينه، فأسرع إليه وطلب من عكرمة أن يلحق بـــه، فتحصنت كندة وحاصرها زياد من ناحية ،والمهاجر من ناحيـــة ،ودارت معركـــة حامية الوطيس ،وانهزمت فيها كندة ،وغنم المسلمون منهم ،ثم وصل عكرمة بن أبي جهل ،فأشركوهم في الغنيمة وعادت كندة إلى حصونها تهيء نفسها لجولة قادمة،ولما رأت كندة أن المسلمين لا تنقطع عنهم المؤونة ،وأنهم غير منصرفـــين ،فخشـــعت أنفسهم ،ثم خافوا القتل ،وخاف الرؤساء على أنفسهم لو صبروا، فذهب الأشـــعث إلى عكرمة ،فاستأمنه على نفسه وتسعة من قومه،وطلب عكرمة من زياد والمـــهاجر أن يقراه على ذلك في مقابل أن يفتح لهم باب الحصن فيدخلوا علـــى المرتديـــن ، وتعجل الأشعث ،فجاء بكتاب وكتب فيه من أحب أن يستأمن له ولكنه –لغـــدره وخسته – نسى أن يكتب اسمه، فلما فتح الحصن واقتحمه المسلمون ووضعوا أيديهم على المقاتلين والنساء و السبي ،دعا الأشعث بأولئك النفر التسعة ،ودعـــا بكتابـــه فنودي على التسعة فأطلقوا و لم يطلقوا سراح الأشعث لأن اسمه ليس في الكتـــاب، فقال زياد والمهاجر : الحمد لله الذي خطأك نفسك يا أشعث يا عدو الله ، قد كنـــا نشتهي أن يخزيك الله ، وكاد يقتل لولا أن عكرمة قال : إذا كان لم يكتب اسمـــــه لكنه هو الذي تولى المخاطبة ، وثار جدل بين المهاجر وزياد وعكرمـــة ، حســـمه عكرمة بقوله : نبعثه مع السبي إلى أبي بكر فهو أعلم بالحكم ، فبعث به زياد إلى أبي بكر فكان المسلمون يلعنونه ويلعنه السبايا، وسماه نساء قومه عرف النار وهي كلمـــة في اليمن تطلق على الذي يغدر بأهله .

كانت فتنة الأشعث أكبر فتنة في اليمن بعد فتنة الأسود العنسي فعنفه أبو بكر أشد تعنيف حيث استنزل قومه إلى الضلال ،ودار بينهما جـــدل حـــول كتـــاب الأمان،حسمه الصديق بأنه مثل الذي قام بدور المفاوض الوسيط لا صاحب المصلحة فلا يشمله العفو ، فقال الأشعث له : احتسب في خيرا ، فأطلق سراحي وأقل عثرتي

وتقبل إسلامي ، وافعل بي مثل ما فعلت بأمثالي فرد علي زوجتي وستجدني خير أهل بلادي لدين الله .

ثم كتب أبو بكر إلى زياد يقره على حضر موت ويطلب من عماله أن لا يستعينوا بمرتد في جهاد عدو .

ثم كانت خلافة الفارق ، أشد الناس في دين الله ، وكان إذا استعمل واليا كتب له عهدا وأشهد عليه رهطا من المهاجرين واشترط عليه أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات .

قال معاوية بن أبي سفيان ، أما أبو بكر فلم يرد الدنيا و لم ترده ، أما عمر فأرادته و لم يردها، وأما نحن غبنا فيها ظهرا البطن .

وعن أنس كنت مع عمر ، فدخل حائطا لحاجته ، فسمعته يقول ــ وبيني وبينه جدار الحائط ــ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ .. بخ ، والله لتتقين الله يا بن الخطاب أو ليعذبنك ، وحمل قربة على عاتقه ، فقيل له في ذلك فقال : إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها .

ورآه علي بن أبي طالب وهو يعدو إلى ظاهر المدينة ، فقال له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قد ند بعير من إبل الصدقة ، فأنا أطلبه ، فقال علي : لقد أتعبت الخلفاء من بعدك.[1]

وقد بدأ تعب من حوله منذ طعنه أبو لؤلؤة المجوسي ، وكان قبلها قد دعا الله أن يرزقه شهادة في سبيله وموتا في مدينة رسول الله ﷺ وقد انتحر قاتله حين أمسكوا به ، ثم سرت شائعة أن الهرمزان هو الذي دفع المجوسي لقتل أمير المؤمنين ، ففقد ابنه عبيد الله بن عمر صوابه فقتل ابنة فيروز المجوسي ثم انتقل فقتل الهرمزان ، وقد أمر عمر قبل موته بحبس ابنه عبيد الله حتى يقضي فيه الخليفة من بعده ، فلما

---

[1] – البداية والنهاية ٧ / ٢٤٧

ولي عثمان وجلس للناس كان أول قضية تشغله هي قضية عبيد الله ، فقال علي : ما من العدل تركه ، وأمر بقتله .

وقال ببعض المهاجرين أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم .؟

وقال عمرو بن العاص ، يا أمير المؤمنين إن الله قد برأك من ذلك ، لم تكن في عهدك فدعها عنك ، فدفع عثمان دية القتلى من جيبه ، وخلى سبيل عبيد الله وكان زياد بن لبيد من أنصار الرأي الذي يرى أن عبيد الله قتل بدون دليل ، وأن عليه أن يقتل ، وإذا رأى عبيد الله قال له :

ألا يا عبيد الله ما لك مهـــرب ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر

أصبت دما والله في غير حلــه ... حراما وقتل الهرزمان لــه خطر

على كل شيء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عــــمر

فقال سفيه والحوادث جمـــــة ... نعم أتهمه قد أشار وقـــد أمر

وكل سلاح العبد في جوف بيته ... يقلبـــــها والأمر بالأمر يقـــبر

فشكا عبيد الله زياد إلى عثمان ، فاستدعى عثمان زياد بن لبيد فأنشأ زيـــاد يقول في عثمان :

أبا عمرو عبيد الله رهن ... فلا تشككك بقتل الهرمزان

فإنك إن غفرت الجرم عنه ... وأسباب الخطا فرسا رهان

أتعفو إذ عفوت بغير حق ... فما لك بالذي يخلي يدان

فنهره عثمان فسكت زياد ، ولعله اقتنع بعد ذلك بوجهه نظر عثمان ، فلعــل المصيبة كانت فوق احتمال عبد الله فضاع رشده بحيث بلغ قدرا لا يسأل فيه عـــن أعماله فلا يكون مسؤولا عنه . فيعتبر ذلك من قبيل قتل الخطأ حيث انعدم عنــده المسؤولية وإصرار النية أو القصد .

كان زياد يجهر بكلمة الحق ، ويعلن رأيه على رءوس الأشهاد ، وينصاع بعـد ذلك لرأي الجماعة ما دمت تلتزم المنـــهج ، إذ أن مـــن فـــارق الجماعـــة قيـــد شعرة فاقتلوه.

وإذ يلتزم زياد بالجماعة فهو التزام المسؤول الذي يتقلد المناصب ويتحمل المسؤوليات وينهض بها ، ويعلم الناس ما تعلمه من النبي ﷺ الذي شهد لزياد بأنه من أفقه أهل المدينة وهي شهادة تلقي عليه أمانة تبليغ العلم وفاء لتوجيهات النبي ﷺ بلغوا عني ولو آية ولقوله :نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها فبلغها فرب مبلغ أوعى من سامع .

حدث جبير بن نعيم عن عوف بن مالك الأشجعي أنه قال : بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم إذ نظر إلى السماء فقال : هذا أوان رفع العلم .

فقال له رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد : أيرفع العلم يا رسول الله وقد علمناه أبناءنا و نساءنا؟

فقال رسول الله ﷺ : إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة وذكر له ضلالة أهل الكتاب وعندهم ما عندهم من كتاب الله فلقى جبير بن نعير شداد بن أوس في المصلى فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك فقال : صدق عوف ثم قال :يا جبير هل تدري ما رفع العلم ؟

قلت : لا أدري قال : رفع أوعيته ، هل تدري أول ما يرفع من العلم ؟
قلت : لا أدري قال: الخشوع حتى لا يرى أحد خاشعا .
وتوفى زياد بن لبيد في أول خلافة معاوية رضي الله عنه .[1]

[1] - أسد الغابة ٢ / ٢٧٣

فهرس الأعـــــلام

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

الفهرس

رقم الايداع	٩٨/١٣٢٢٧
الترقيم الدولى I.S.B.N	977/19/6985/4